أحلام في المقابر

رواية

عنـــوان الكتاب: أحلام في المقابر

اســـم المـؤلف: مـهـا صبـــري

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 25384 / 2021

الترقيـم الدولي: 2 - 250 - 998 - 977 – 978

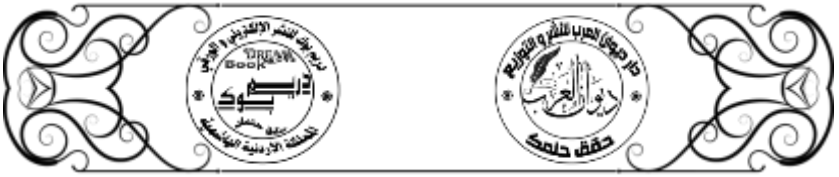

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين **تـصـمـيـم الغلاف: فاطمة رمضان**

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه **رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى**

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

أحلام في المقابر

رواية

مـهـا صبـري

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حفظة

إهداء

أُهدي روايتي إلى "أحلام" بذرة الخير النابتة في محفل الشر،
حِفنة البراءة المتبقية في كل نفس،
أحلام الأبرياء وأصحاب المبادئ والمتوكلون على الله وليس لهم وسيط،
أهدي روايتي إلي نفسي .. أنا "أحلام"
وإليك عزيزي القارئ، متمنية أن تنال إعجابك

مها صبري

****

الفصل الأول
زيارة مفاجئة

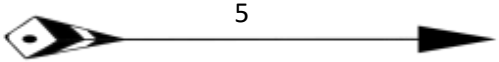

كشرت السّماء عن أنيابها والسحب تلاقت في انسجام، اتحدت سويًّا لتخرج ما في جعبتها وصوت الرعد اخترق السّماء، إنها تنذر بالهطول، نعم عقدت حاجبيها لتمطر، وهناك من وقفت أمام النافذة فتحتها على مصراعيها ونظرت إلى السّماء، إنها فتاة في الثانية عشر من عمرها، هندامها مرتب وشعرها منعقد في جديلة أنيقة، تلمع عيناها العسلية ووجهها منير كضوء القمر، وقفت بشغفٍ آملةً أن يسقط المطر، تهمهمُ في نفسها:

أيتها السّماء اهطلي دمعاتك سريعًا، فقد تآلمت قدماي من الانتظار، أريد أن أمنحك دعوات لأحبائي.

وهي تهمهمُ صدمتها قوة من الرياح الباردة جعلت أوصالها ترتعد من البرودة؛ فأوصدت النافذة سريعًا والتفتت إلى حجرتها، إنها حجرة صغيرة بها خزانة للملابس بجوارها سريران أحدهما غير مرتب يبدو أنها استيقظت للتوّ والآخر مستلقي عليه فتى في الخامسة من عمره، ومكتب صغير خشبي وضع خصّيصًا ليحمل على عاتقه الكتب المدرسية والأدوات الدراسية، سمعت صوتًا آتيًا من الخارج:

أحلام ... أحلام

كانت الفتاة شاردة وداخلها خوف وانقباض لا تعرف أسبابه ورغم سماعها للنداء لم تلبِّ، كان يراودها إحساس يسيطر عليها بقوة، وفجأة هناك من دخل حجرتها دافعًا الباب بقوة، ارتسمت على وجهها علامات الغضب العارم مقضبةً حاجبيها:

ـ (أحلام) لماذا لا تجيبي؟ ألم تسمعيني؟

- هاه، أمي!

ـ كم من مرة حذرتك من هذا الشرود السخيف الذي لا أعرف أسبابه!

أجابت الفتاة في حالة من الشرود:

ـ لا أعلم أنا أيضًا أسبابه كذلك يا أمي ولكن اليوم مختلف أشعر أن روحي تنقبض بقوة.

ـ هيا يابْنتي فلنذهب إلى العشاء ونصيحة مني لا تخلدي للنوم قبل صلاتك.

- وهل تناول (مازن) العشاء؟

ـ إنه نائم لا تشغلي بالك يا صغيرتي تناولي عشاءك أنت، وأنا سأنتظر بابا حينما يعود من العمل.

وضعت الفتاة يدها حول عنقها وكأنها تعاني من اختناقٍ مفاجئٍ وقالت وقد انتابتها رجفة:

ـ أمي هناك شيء يقبض على روحي، يكاد يخنقني لا أعلم ما هذا الشيء!

قبّلت أمها رأسها في حنان وربتت على كتفها وقالت:

ـ حبيبتي أنت تحتاجين إلى الراحة، اذهبي أولًا لتؤدي صلاتك، ثمَّ اغفلي أو هلمِّي بنا لنصلي معًا.

وذهبت الاثنتان إلى غرفة الفتاة واستعدّتا للصلاة بعد الوضوء وارتداء الطرحات وركعتا سويًّا وبدأتا بذكر الله، ثمَّ حين انتهت الاثنتان قالت الفتاة مبتسمة:

ـ أمي الآن أشعر بارتياح أشكرك.

وودعت كلٌّ منهما الأخرى وذهبت أحلام الفتاة الصغيرة إلى حجرتها ونظرت بارتياح إلى وجه مازن المستلقي على السرير المجاور لها، وبعد ساعات قليلة كان الأب قد حضر وتناولوا جميعهم العشاء وناموا هانئين.

وعند بزوغ الفجر شعرت أحلام بشيء ما على عنقها يكاد يخنقها تتحسس عنقها وكأن أصابع هلامية موصدة بها، لا تستطيع أن تلفظ أنفاسها، وحلقها جاف تريد مياه تريد الصراخ ولكن صوتها لا يخرج، وتريد القيام وكأنّ جسدها مثبت بمسامير من فولاذ على السرير لا تستطيع الحراك، وبعد دقائق من هذا الإحساس سمعت بالخارج ما لم يكن على البال، صوت صراخ وعويل وبكاء بقوة زلزلت المكان، صحى الجميع من غفلتهم ينتابهم الفزع الشديد غير واعين ماذا يحدث، كانت أحلام قد هرولت هي الأخرى ترتعد أوصالها تريد الاختباء في حضن أمها، وأما عن أخيها مازن فقام فزعًا يبكي على صوت البكاء المتعالي بالخارج دون وعي منه، ماذا يحدث؟ كان هذا السؤال لسان حال الأسرة، أسرع الوالدان وطلّا من الشرفة تتسارع نبضاتهم فاغرين أفواههم وأعينهم اتسعت من مفاجأة ما رأوا، إنّ هؤلاء الزائرين آخر من يتوقع حضورهم ولكن ماذا

جاء بهم إلى هنا؟ وفي تلك الساعة المتأخرة وبتلك الصورة المؤلمة المقبضة إلى النفس يتشحون بملابس الحداد، لا زال الصراخ يتعالى ولا يصمت، الأرجاء تهتز بقوة والأوصال ترتعد بمن في البيت.

من هؤلاء؟ وماذا يحدث بالخارج؟

ولماذا ينوحون ويبكون؟ وفي تلك الساعة؟

****

الفصل الثاني

العزاء

غفت عيناها ولم تكن تستوعب ما يدور حولها، كان الضجيج والعويل حولها من كل اتجاه ولكن حجم استيعابها لم يدرك تلك الحقائق، ظلت مستسلمة لغفلان جفنيها وكأنها في حلمٍ غريب بل كابوس مؤسف، وفجأة يدٌ غُرزت في كتفها لتوقظها.

- أحلام هيا انزلي من السيارة لقد وصلنا العزاء.

- هاه.. هل أنا لست أحلم يا خالتي؟ هل نحن في دنيا الواقع؟

لم يأتها جواب من خالتها التي تخاطبها بل عيرتها ظهرها، مرتدية ملابس الحداد متأبطة ذراع أختها والدة أحلام كانت الأخيرة تعوي وتصرخ بأعلى الأصوات، ترجلت أحلام من السيارة حاضنة في يدها اليمنى كفًّا صغيرًا، إنه مازن يفرك بيده الأخرى في عينيه، حقًّا ليلة أمس لم تكن بهانئة أبدًا حينما كان الجميع نائمين في سلام وفجأة ارتجت الجدران بالصيحات وصرخات الحزن، وهرول الجميع ليروا ما حدث ومن بالخارج كان هناك كلٌّ من خالة أحلام وزوجها ماثلين في حالة من الحزن، واللذان يقيمان في القاهرة جاؤوا في زيارة مفاجئة فجرًا إلى مدينة سمنود ملتحفين بالحداد وحالتهما يُرثى لها.

ترجل الجميع واقتربوا من منزل الجدة إنه مكتظ بالمعزيين من الجيران والأهل والأقارب مرتدين وشاحات الحزن والحداد، والبكاء والصياح يتعالى في حين تربت إحداهن على كتف والدة أحلام تلك السيدة جارة المرحومة

جدة أحلام وأم والدتها المرحومة هي السيدة سعاد فهيم ودار بينهما هذا الحديث.

الجارة:

ـ تماسكي يا بنيتي جميعنا راحلين.

أم أحلام صوتها تخنقه الدمعات تتمزق أضلعها من الحزن غير مصدقة وفاة أمها المفاجئ، وكيف حدث ومتى وبدون سابق إنذار تصرخ وهي تبكي منهمرة:

- كيف ماتت أمي؟ كيف أجيبوني؟

الأطفال -أحلام ومازن ومعهما أولاد خالتهم وهم صبيان في السابعة والسادسة من عمرهم- الجميع في حالة من الفزع لما يدور من جو الحزن، ولكن تحاول الابنة الأكبر من أولاد السيدة سعاد الانتهاء من مراسم تغسيل الجثة والدفن، جاؤوا بإحدى السيدات المسنات لتغسيل المرحومة، ووقف الباقون بالخارج غير قادرين على حضور ذلك الموقف المؤثر، تقدمت السيدة من حجرة المتوفية تحمل في يدها كل الأدوات المطلوبة للتغسيل، كانت سيدة بدينة تتحرك ببطء طيبة القلب وصحتها إلى حد ما جيدة، دلفت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها وحينما شرعت في تغسيل الجثة وجدت أشياء شديدة في الغرابة يشيب لها الرضيع، كانت أصابع المتوفاة تتحرك إذا اقتربت المغسلة من ساعدها الأيمن والذي كان ملفوف عليه رباط غريب في أعلى الكتف مكتوب عليه بالأحرف والرسومات غير

المفهومة وكانت أظافرها تميل للزرقة، في البادئ لم تأخذ المغسلة في بالها وأكملت العمل الذي دعوها إليه في سرعة؛ كي تنتهي ولكن عندما اقتربت من العصابة المربوط بها كتف المتوفية لتحلها حدثت زلزلة في البيت غير متوقعة وصرخ من هم خارج الغرفة، ولكن اعتقدوا أنه زلزال ليس إلا وكذلك المغسلة كانت تهمهم قائلة:

"بسم الله الرحمن الرحيم وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأت الفاتحة وكذلك المعوذتين وسورة ياسين وكانت الأمور في ذلك الحين مستقرة تمامًا بالخارج وفي غرفة التغسيل، وفي أثناء ترديدها لبعض آيات القرآن كانت تفك العصابة، ولكن حدث شيء غير متوقع بالمرة وفوجئت بما كان مكتوب ومحفور في جسد المتوفية ومكانه أعلى الكتف إنه اسم أحد أفراد العائلة، كان مكتوب بطريقة عجيبة باللون الأخضر يشبه الوشم، المسنة تحدق عيناها جاحظة من الرهبة، كانت الرسمة عبارة عن ثعبان يلتف حول جمجمة مفرغة تمامًا ومكتوب عليها أربع أحرف مفككة وعند رأس الثعبان غرست سكين ولكن ما هي تلك الأحرف؟ هل طلاسم؟ اقتربت المغسلة لتقرأ ما هو مكتوب وتحاول معرفة الأحرف إنه اسم أ ح ل ا م.

****

الفصل الثالث
حقيقة أم خيال

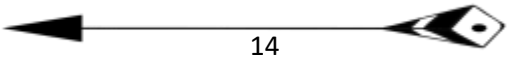

الجميع مهيؤون للذهاب إلى المقابر لدفن المتوفاة السيدة/ سعاد فهيم منهم من يبكي ومنهم من يحاول التماسك، تتكلم وهي تبكي:

أحلام سأتركك أنتِ ومعك أولاد خالتك عند إحدى الجيران، تتحدث وتحاول مسح أعينها من الدمعات التي تخنق صوتها بالحزن.

- أمي لماذا؟ فلنجلس هنا ننتظر عودتكم.

تغضب أمها وتزمجر في الفتاة:

ـ قلتُ لا تناقشيني، يكفي ما أنا فيه وفاة جدتك ليس بهين.

- حاضر يا أمي ولكن ربما تتأخرون أو ربما أردت ملابس لأحد أبناء خالتي الصغار ماذا أفعل؟

ـ انتبهي لي سأترك لكِ مفتاح الشقة وأعلقه في رقبتك ولا تنزعِيه أو تذهبي للشقة وحدك إلا عند الضرورة.

أومأت الفتاة برأسها بالموافقة، وذهبت حيث اصطحبت معها في إحدى يديها أخيها مازن واليد الأخرى أبناء خالتها وكان في انتظارهم السيدة الجارة التي حدثتها أولًا أم أحلام ودار بينهما هذا الحوار.

ـ أم أحلام: رجاءً عزيزتي سنترك عندك أولادنا إلى حين عودتنا من المقابر كي لا نتركهم بمفردهم في المنزل، فجميعهم صغار وإن احتاجوا شيئًا فأحلام معها مفتاح الشقة.

ـ الجارة: على الرحب لا تقلقي أبدًا بشأنهم فقط انتبهي لنفسك "وشدِّي حيلك" الله يصبر قلوبكم.

ودعت الأم ابنتها وكذلك مازن وأولاد شقيقتها وذهبت مسرعة إلى سيارة نقل الموتى التي تحمل على متنها صندوق المتوفية، وكذلك جميع الأقارب والأهل والجيران ذاهبين جميعًا إلى المقابر، وفي أثناء السير وكانت من ضمنهم السيدة المسنة الغسالة طرحت سؤالًا دون أي مقدمات لإحدى الراكبات جوارها:

ـ من هي أحلام؟

فقد تذكرت ما رأت داخل غرفة المتوفاة وكان مفاجأة لها ولكن خشيت أن تبوح بأي شيء فهذا احترام لحرمة الموت وربما أبناؤها يعلمون بهذا الوشم المنقوش، تذكرت رسمة الجمجمة المنقوشة على ساعدها الأيمن يحمل اسم أحلام

جاءتها الإجابة:

ـ إنها حفيدة المتوفية الكبرى والفتاة الوحيدة في الأحفاد، ولكن لماذا تسألين؟ ولماذا عن أحلام بالخصوص؟

السيدة المسنّة تعرق وجهها وانتابها الخوف بالأكثر ظنًّا منها إن زودت في الحديث تغضب منها المرحومة، فصمتت دون إجابة وغيرت اتجاه وجهتها نحو نافذة السيارة، وهنا قد وصلت السيارة بهم إلى المقابر، ونزلوا جميعًا وبدأ العويل والصراخ مرة أخرى من الأقارب ولكن حدث شيء شديد الغرابة جعل الجميع ينتابه الذعر بينما هم يحملون الجثة ويدلفون إلى المقبرة، هبطوا الدرج المؤدي إلى المقبرة فسمعوا صوتًا غريبًا من النعش

واهتزَّ من بين أيديهم، فارتعش الجميع وخفقت قلوبهم، ثمَّ حاولوا أن يسرعوا كي ينتهوا من تلك اللحظات المؤلمة؛ فحدث وكأنّ النعش يدفع بهم إلى الخلف كلما اقتربوا للأسفل شعروا بقوة معاكسة لهم تدفع بهم للاتجاه المعاكس، ما جعلهم يتركون النعش بجوار أسفل السلم داخل المقبرة ويصعدون سريعًا خائفين وعلى وجوههم علامات الفزع؛ مما أثار دهشةَ الجميع وقالوا فيما بينهم: ربما إنها حلاوة الرّوح للمرحومة كانت تريد الحياة والأقدار شاءت ما شاءت.

وعلى صعيد آخر هناك في منزل الجارة كان الأطفال يلهون ويلعبون في سعادة؛ لأن الجارة قدمت لهم الحلوى وألعاب أبنائها التي كانت محتفظة بها حينما كانوا صغار.

- يا مازن كفاك حلوى، الشيكولاتة جعلت ملابسك تتسخ وكذلك يديك وأنت أيضًا يا عمرو اتسخ بنطالك أيها الصغير حينما تعود خالتي سوف توبخك، كانت أحلام من تتحدث للصغار واندمجت وشعرت كأنها بمثابة القائد جعلها هذا تشعر بالسعادة برغم الأجواء المضطربة، وهذا التوقيت ولكن تلك هي الطفولة غير مرتبطة بزمان أو مكان ولا تعي متاعب الحياة، إنها البراءة، ثمَّ لم يجيبا من حدثهم، على حين أجابت السيدة الجارة:

ـ اهدئي يا صغيرتي أنا سوف أنظفهم جميعًا ولكن أحضري لي ملابس نظيفة لكلٍّ منهم.

ـ أحلام: كيف يا سيدتي وليس معي ملابس لهم؟

الجارة ضحكت وقالت:

ـ سمعت أمك تقول أنّها تركت لكِ مفتاحَ الشقة، اذهبي يا صغيرتي وأحضري ملابس لهم وعودي سريعًا.

وبكل براءة لبّت الفتاة طلبها وذهبت مسرعة إلى شقة جدتها، وتذكرت أنّ أمها علّقت المفتاح في عنقها، ولكن بعدما كانت تجري وتجري بلهفة نحو الشقة تذكرت أنها خالية من الجميع وهي تخاف الوحدة تمامًا فسارت بخطىً مترددة، الآن هي أمام الباب أمسكت بالمفتاح واقتربت بعنقها حتى تُدخله في مزلاج الباب، كان المفتاح عليه نقط حمراء ورائحته مثل الدم لم تعلم ما هذا، لم تهتم وقالت في نفسها:

ربما يكون طلاء أظافر.

فتحت الباب، الأنوار مطفأة تمامًا، الجو تسوده العتمة تحاول أن تتحسس أكياس الإنارة وشيء ما يقبض على يدها، جحظت عيناها من الخوف تسارعت أنفاسها ودقات قلبها، ترتعش شفتاها مرددة: بسم الله الرحمن الرحيم وعليك توكلت يا الله، فوجدت الكبس وأضاءت النور ولكن حين أضاء وجدت ما لا يُحمد عقباه وفتحت فاها وتسمّرت مكانها، جسدها ينتفض وريقها قد تحجر في حلقها، تحاول أن تخرج الحروف من فمها بصعوبة بالغة:

ـم م... من؟ .... جدتي؟!

الفصل الرابع
على موعد

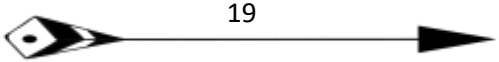

تسحّبت بخطىً مترددة وثقيلة نحو أكباس الإنارة يعتصر الخوف قلبها، ظلت تذكر الله حتى وجدت المفتاح وأضاءته ورأت آخر من تتوقع وجوده بذاك المكان، التصق لسانها في حلقها حاولت النطق وهي تشهق من الصدمة:

أحلام:

ـ م م من؟؟ جدتي؟

طيف يشبه الجدة تمامًا ولكنّه ليس إنسيًّا، شفاف لا يلمس الأرض، حقًّا إنه شبح الجدة في دهاءٍ قالت بصوت منخفض:

ـ نعم أنا يا حبيبتي ولكن ليس كما تظنين.

ـ أحلام: كيف أنك هنا؟ ومن التي ذهبوا بها إذًا إلى المدافن؟ ألم تموتي؟ هل أنا مستيقظة؟ أم أنّ ذلك حلم وسوف أفيق منه؟

انتاب البنت خوف يرج خلايا جسدها، وتحاول أن تعي ما هي فيه.

ـ تجيب الجدة: حقًّا إنّي متُ يا صغيرتي، ولكن الآن أنا هنا روح جدتك، ولن يسعني الوقت لأشرح لكِ كل شيء، الآن عليكِ أن تصغي لي جيدًا، وإلا سيضيع الوقت هباءً وربما يضيع عمرك.

وتضحك ضحكة مرعبة فهي تشبه الجدة بتجاعيد وجهها ويديها وعينيها الضيقة وشعرها الأبيض، ولكنّ قدميها ليس لهما أثر فإنهما كالسحاب الذي يطفو فوق الأرض مرتدية جلبابًا ووشاحًا أبيض عالية عن الأرض تخترق الجدران، في حين حاولت الفتاة الجري نحو جدتها ظانّة منها أن

باستطاعتها احتضانها فهي لا تعي ماذا يعني روح بلا جسد، جرت نحوها فارتطمت بالحائط الذي كان بخلف الرّوح،

ضحكت الروح ضحكة مدوية ومرعبة كذلك وقالت:

ـ أحلام أعيريني انتباهك جيدًا، ليس هناك متسع من الوقت فربما يعودون الآن من المقابر لا بدّ أن تأتيني اليوم كما سأحدد لكِ الموعد وعساكِ ألا تتأخري أو لا تأتي؛ ستكون العاقبة غير سارّة يا صغيرتي وهناك سأخبرك ماذا تفعلين بالضبط، عليكِ أن تنتبهي كي لا يعقبك أحدٌ وألا تدلي ببنت شفة عما ستريه أو تسمعيه لمخلوق، واعلمي أن ما سوف تفعلينه سيجعلني راضية عنكِ تمامًا، وما سيؤول إليك من نتاج فهو خيرٌ لكِ.

الفتاة تلعثمت مما أصغت إليه، فغرت ثغرها في وجوم تبتلع ريقها عنوة، عيناها مثبتة في جحوظ على ملامح الجدة التي تبدو طيبة، بينما صوتها الغليظ يثير في نفس الفتاة الرعدة، وما منها إلا أن أجابتها بإيماءة من رأسها موافقة تهجئ الأحرف:

ـ ن... نعم جدتي.. س.. س.. سوف أنفّذ ما تقولين لي، ولكن متى سأقابلك وأين؟ إنك إلى الآن لم تخبريني، ابتسمت الرّوح في خبثٍ شديدٍ وضاقت عيناها محملقة في الفتاة بنبراتٍ غليظةٍ:

ـ في الثانية عشر بعد منتصف الليل هناك عند القبر عساكِ ألا تتأخري، تذكري جيدًا أنّ إخلالك بأي حرف فيما أقول سيعرض حياتك وحياة

الجميع للهلاك، وفجأة انشقّت الجدران لتبتلع تلك الرّوح وانطفأت الأضواء مسببة زلزلة للمكان، مما جعل الفتاة تهم بمغادرة الشقة وهي تنتفض تخرج وتوصد الباب، كادت تنكفئ من فوق الدرج ورغم أن ما شاهدته جعلها تكاد تفقد صوابها، إلا أنها استعادت ما هي كانت عليه قبل المرور بالشقة، فعادت سريعًا إلى الجارة حاملة معها بعض الملابس تحاول أن تلتقط أنفاسها.

ـ الجارة: ماذا بكِ يا صغيرتي؟ يبدو عليكِ القلق.

الفتاة شاحبة والجوم يخالط عينيها، تتخفّى بين أبناء خالتها وتحاول أن تحدثهم ناهية عنها شكوك الجارة التي كانت ترمقها في دهشة، مر من الوقت ساعات إلى أن عادت والدتها من القبور وهمّت أن تأخذها هي والصغار إلى الشقة، مسامعها كانت على وشك أن تبوح لأمها بما حدث ولكن جملة واحدة استوقفتها، "إخلالك بأي حرف فيما أقول سيعرّض حياتك وحياة الجميع للهلاك"؛ فانزوت إلى أن جاء الليل.

****

الفصل الخامس

الوصية

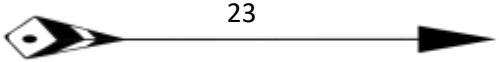

سارت بخطىً مرتعدة وأطراف متجمدة حتى اقتربت من قبر جدتها، أنفاسها تتسارع في سباقٍ كادت المفاجأة تصيبها بالشلل، حينما وقعت يد قوية على كتفها جعلتها تصرخ من الخوف صرخة طفولية، والتفتت لترى من يكون، إنها ليست أمها وليست الرّوح، وإنما كان شخصًا آخر قوي البنية ضخم الجثة مرتديًا ما يشبه الجلباب، وعيناه تحملق يتطاير منها الشرر رغم ضوء القمر الخافت، القبور رائحتها المنفرة وصقيع الليل القارس يدُكّ أوصالها دكًّا، وما إن حاولت الفرار وإذ بالرجل يبادرها بحديثه:

ـ من أنتِ أيتها الفتاة؟ وماذا جاء بكِ إلى هنا وفي تلك الساعة؟

صوته أجش مرعب غليظ يشبه بنيته، إنه ضخم الجثة أشعث الشعر، يعلو رأسه لفافة وشكله في انعكاس القمر، يبدو هندامه غير مرتب مقبض للنفس، في حين أن أحلام تلتفت حولها وعادت تنظر لحدقتيّ عينيه الغائرة في الظلام تزيد من ريبتها؛ لترتعش الأحرف على شفتيها:

ـ إنني جئت لأزور قبر إحدى قريباتي التي توفاها الله.

- ومن هي قريبتك؟ ولماذا تجيئين ليلًا كاللصوص؟ لا بدّ أنكِ كاذبة وربما تخفين شيئًا.

انتفضت أحلام رعبًا وعيناها مشبعة من الخوف وهي ما زالت تشخص لعينيه اللتين ترمقها في حدة:

ـ لا أخفي شيئًا ولكن اشتقت لجدتي التي رقدت أمس هنا، ووالدتي منعتني من وداعها الأخير، لذا جئت ليلًا خفيةً من أهلي لأنني صغيرة ويخافون عليّ من المقابر، ولكن من أنت أيها العم لتحقق معي هكذا؟

- أنا حارس المدافن واسمي مطاوع، ورغم أنّ حديثك لا يدخل رأسي ولا أصدقه ولكن اذهبي حيث أنتِ قاصدة.

وجعلها ترحل إلى قبر جدتها وهو يرمقها بنظرات ثاقبة مخيفة تُهيّئ للفتاة أنه شيطانٌ متنكرٌ، ثمَّ ذهبت وهي معتقدة أنه جلس بمكانه وتركها ولكن على عكس ذلك الآن تقف أحلام أمام مدفن مكتوب عليه قبر السيدة/ سعاد فهيم، تتحدث الفتاة بصوت منخفض وهي تنظر حولها يسارًا ويمينًا تتأكد أن ليس هناك من يتبعها.

ـ أنا... أنا هنا أيتها الرّوح أرجوكي اظهري، أنا جئت طوعًا لكِ فماذا تريدين مني؟

تملكها الخوف وضاقت أنفاسها وكأنّ اليد الهلاميّة عادت للقبض على عنقها، حاولت لفظ أنفاسها، وفاجأها صفير الهواء وهبوب رياحٍ عاتية من كل جانب وزوبعة من الأتربة تحجب الرؤية عن العين، راودها صوت حجرٍ يتزحزح بقوة ويَخرجُ من القبر شيءٌ كسحابة طيف، إنها الرّوح روح الجدة، الرّوح ابتسمت في خبث:

ـ أنتِ فتاة مطيعة كنت أعلم أنكِ لن تخيّبي ظنّي بكِ، وتستحقين ما فعلته من أجلك.

أحلام اتسعت عيناها:

ـ أنا هنا مُرِينِي ماذا تطلبين؟

- هذه الورقة لا تفتحيها بل ضعيها في خزانة ملابسي في منزلي -تمد يدها بورقة ملفوفة ومنعقد حولها شريط من الساتان الأزرق-وتأخذ أحلام الورقة تنظر لها.

ـ ما هذه الورقة؟ ولماذا لا أفتحها؟

- إنها وصيتي ولا بد أن تقرأ على مسمع ومرأى من الجميع فدسّها في الخزانة وهم سيجدونها.

واستطردت الرّوح حديثها في همس:

ـ أحلام.. هناك خطر يهدد حياتك لأنكِ أول حفيدة بل الفتاة الوحيدة أيضًا في العائلة، لذلك دعيتك أنتِ على الخصوص علينا العمل بخطىً أسرع من الزمن، كي لا يتمكن هو من أن يجدك قبل... وتصمت الرّوح قليلًا تضع أصابعها على جبينها تقدح زناد أفكارها.

ـ قبل ماذا يا جدة؟ ومن الذي سيجدني؟ أجيبيني يا جدة ما الخطر الذي يهددني؟

عينا الرّوح مجحظة ذات جفون مترهلة، وجهها مجعدٌ مشبعٌ بالقلق، التقت عيناها بعينيّ الفتاة والتي تحمل آلاف الأسئلة تريد إجابة.

- هو... هو... إنه... من لقّبوه بسارق الأحلام، وأما عن اسمه الحقيقي هو

وكادت تنطق الرّوح، ولكن شعرت بحركة وصوت غريب آتٍ على بعد خطوات من مكانهما أمام القبر، شبح ظلٍ ظهر ثمّ اختفى فجأة، عقدت الجدة حاجبيها موجهة كلامها للفتاة بهمس:

ـ هل من أحد يعرف بمجيئك؟

(أحلام) أشارت برأسها منافية: لا لا

إذًا هناك من يتبعك لا بد أن تعودي سريعًا وموعدنا هنا بعد الواحدة من كل ليلة لا تتأخري وافعلي ما طلبته منكِ وأنا سأتكفل بمن جاء خلفك.

ـ حاضر سأنفذ كل ما تطلبينه مني رغم أني لا أفهم أي شيء، ورغم أني توحشت جدتي ولكن يكفي أن أرى ملامحها فيكِ أيتها الرّوح.

- والآن اذهبي سريعًا وانتبهي لحالك، ومهما حدث لا تعيري ظهرك للوراء أسمعتيني؟ مهما حدث لا تلتفتي خلفك.

وعادت الفتاة متوجهة إلى بيتها سريعًا مشتتة الأفكار، وقد أهلكها الإرهاق والشعور بالإعياء، وعندما وصلت إلى بيتها سارت على أخمص أصابعها إلى أن وصلت إلى خزانة الملابس الخاصة بغرفة جدتها، ودست الورقة المقصودة كما أمرَتها الرّوح بين الملابس، ثمَّ دلفت إلى غرفتها لترتمي على سريرها في إعياء مستسلمة للنوم.

وأما في الصباح الباكر هناك في المقابر ذهب أحد الزائرين لقبر متوفاة وعند دخوله تفاجأ بأمر أكثر رعبًا كاد يوقف قلبه من الخوف ولكن ماذا رأى؟ وما تحمله تلك الورقة أو الوصية؟ ومن الذي كان يتبع الفتاة؟

الفصل السادس

الخيط

ومع بزوغ الفجر غابت الفتاة في ثباتٍ عميقٍ بعد تلك الليلة الموحشة التي مرت بها كمرور دهر من الزمان، كانت في غفلة لتستشعر منها ببعض الراحة والأمان، على حين في الصباح كانت تدبّ أقدام رجال الشرطة يزرعون المكان، إذ إنهم عثروا على جثة ملقاة بين المدافن وحين وصلت الشرطة عاينت المكان وتبين أنها جثة مطاوع غفير المقابر فكانت ليلة أمس موحشة حقًّا، وحين طفقت أحلام عائدة إلى منزلها خطواتها تعانق الطريق في لهفة للخروج من هذا المكان المقبض، جاءتها صرخة مدوية لترن في أذنيها، كانت الرغبة تلح عليها للالتفات لترى ماذا حدث ولكن تذكرت ما نبهتها إليه الرّوح قبل مغادرتها هذا اللقاء، فكانت تلك الصرخة ما هي إلا أصابع هلامية تنقض على عنق رجل مفتول العضلات، باغتته من الخلف فتحشرج صوته وجحظت عيناه مشيرًا بإصبعه محاولًا المناص:

_ أنا أنا لم أرَ شيئًا أرجو...

وهنا جحظت عيناه بالأكثر وكاد أن يبتلع لسانه المُعبّأ بالحروف، قد أجهزت عليه الرّوح ولسان حالها:

فلتكن عبرة لمن يعتبر حتى لا تتبع أحدًا ويشركك فضولك فيما لا يخصك أيها الأرعن.

وحينها دوت ضحكة عالية تقتلع القلوب زلزلت المكان، وحين فحصت الشرطة الجثة وجدتها على حالة من الذعر، وهنا قُيدت ضد مجهول إذ إنه لا يوجد من يُشتبه به.

ومع نهار يوم جديد جاءت الشّمس كفاتنة بأشعتها تطرق الأبواب والعيون الغافلة، اليوم قد انقضى على وفاة الجدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وهنا استوجب أن تتبع تقاليد العائلة حيث أنهم أحضروا شيخًا يتلو آيات من القرآن الحكيم لانصراف الرّوح من المنزل، بينما كانت الشقيقتان سناء وإخلاص ابنتا المرحومة كعادة الأيام الماضية مشغولتين في تهيئة البيت للمعزيين وإعداد الطعام وأكواب القهوة بأيدٍ مشبعة بالألم وأعين ذبلت من الحزن.

الأخت الأكبر سناء هي الأكبر من والدة أحلام التي تُدعى إخلاص، قد انتهت سناء من المهام الصباحية سارت في أركان المنزل كتائهة تبحث لها عن شيء مفقود ربما عن نفسها، إذ أنها كانت متعلقة بالمرحومة فقد كانت الأقرب لها من أفراد عائلتها، راحت تجول هائمة بخاطرها في ذكريات جمعتها بأمها؛ فأشعلت البخور دلفت إلى غرفة والدتها تتحسس الوسائد وتتشمم عطرها وتذرف الدمعات في صمتٍ مبين يتردد داخلها آلاف الأصوات تتزاحم إلى أن جاءها صوتٌ قطع سرب الذكريات جعلها تنهض متوجهة إليه، إنه رنين الهاتف الأرضي ارتفع يستغيث هل من مجيب.

- ألو.. نعم هنا بيت المرحومة سعاد فهيم.

على الطرف الآخر:

ـ سآتي إليكم في تمام الساعة التاسعة ليلًا.

- من المتصل؟ حضر..

المتصل لم يمهلها أن تبادره بسؤالها وقبل أن تكمل منحها إجابته في صمت، أسرعت بإغلاق السماعة وأنهت الحديث.

ابتلعت سناء ريقها باندهاش وبدا على ملامحها التوتر، ثمَّ اتجهت إلى المطبخ حيث شقيقتها والدة أحلام -إخلاص- كانت مستغرقة في أعمال الطبخ، شعرت بطيف أختها انتبهت حين دخلت الأخيرة فحدقت بها بنظرة استفهامية:

_ ماذا بكِ؟

تجيب بصوت متهدج وكأنها تتلقن الأحرف مشيرة بإصبعها إلى الهاتف:

_ هناك أحد اتصل وأخبرني بمجيئه، ثمَّ أغلق الهاتف.

- لم يخبرك من هو؟

أجابت بإشارة من رأسها بالنفي دون أن تتفوه، فحدقت إخلاص في عينيها التائهة، ثمَّ افتعلت ابتسامة ممتعضة مربتة على كتف الأخيرة:

_ لا عليكِ لمَ كل هذا القلق؟!

ثمَّ انصرفت كلتاهما كلٌّ في اتجاه، كان زوج سناء ويُدعى فوزي موظفًا في هيئة الآثار بينما والد أحلام -عماد- يمتهن التجارة وكلا الشقيقتين تتنعمان في خير وفير لا يتناسب مع رواتب أزواجهنّ ولكن لا أحد يعلم مصدر هذا الثراء سوى امرأة واحدة رحلت وتركت خلفها أذيالًا شائكة من الأسرار.

مرت الساعات بوهنٍ كمضيّ سلحفاة تسربلت في خطواتها أفكار لا تنضب إلى أن دقت الساعة معلنة التاسعة، ومع دقات الساعة خالة أحلام تشخص ببصرها نحو الساعة وللتوّ دقّ جرس الباب، ارتجفت وهمّت تفتح بتوجس لترى من الطارق.

طلَّ أمامها برأسه الذي نبت به بعض المشيب ونظارته السوداء ضيف يجهله الجميع وقبل أن تسمح له بالدخول كان قد سبقها ناحيًا إياها جانبًا بيده، مما أشعل غضبها وانعقدت ملامح الثورة أعلى جبينها، خلع نظارته ووضعها على الأريكة التي قابلته في مدخل "الريسبشن"، ارتمى فوقها حين دلف وأخرج سيجارة من جيب بذلته ونفث دخانها في ارتياح، في حين تحدق به عينا سناء فاندفعت الأخيرة نحوه كالثور الهائج تشتعل عافقة إياه من بذلته وقالت في عصبية:

ـ من أنت؟ ومن أذن لك بالدخول؟ ألم تعِ أن البيوت لها خصوصياتها؟ إنك تبدو أحمقَ بهذا التصرف الأرعن و ...

قبل أن تكمل لم يدَع لها فرصة بل أجابها ببرود:

ـ أين باقي أفراد العائلة؟

رفعت حاجبيها في عجب لما بدر منه:

ـ وما شأنك أنت؟ ألم تنصت إلى ما قلته توًّا؟ أم أنك أصم؟

عقد حاجبيه متأفّفًا يبدو عليه الاستياء:

ـ كيف لك أن تهيني محاميّ المرحومة! أهذا جزائي؟

كل تلك الأمور تدور دون علم من أحلام والتي لا زالت تنزوي في غرفتها من ليلة أمس المشؤومة، وما رأته هناك جعلها في بئر نوم بلا قرار، ثمَّ بعد قليل تحدّث الضيف بصوت كالهمس:

ـ لا بدَّ من عقد جلسةٍ سريةٍ لأفراد العائلة وبأسرع وقت.

أومأت له سناء بالموافقة بدا عليها البلاهة، وراحت تقدم له اعتذراها وتنفض بيدها ثيابه عما بدر منها طالبة العفو، فابتسم لها وكأن شيئًا لم يكن، ثمّ أشارت له تجاه غرفة الضيوف ليتفضل:

ـ هناك.. تفضل هناك.

ونادت الجميع وأغلقت الباب خلفها، وبمجرد أن أُغلق الباب ارتعشت الإنارة بالغرفة لتجعل الحضور في ارتباك وفزع، ثمّ فاحت رائحة دخان شديد من أرجاء المنزل مما أيقظ أحلام التي كانت تظنُّ أنّها تحلم أو أنَّ هناك كابوساً، ولكن ما أصعب أن تحيا أحداث كابوس واقعي لا ينتهي إلا بنهاية مفجعة.

****

الفصل السابع
الوصية

ليس من الأفضل أن يُولد الخير متجسدًا في بشر بين عالم لا يعرف سوى معنى الشر ويتقنه باحترافية قاتل يقتل بسكين بارد، من المعتاد أن يولد الشر في مجتمع الشرور أو من الهين أن يولد الكذب في عالم مشبع بالكذبة، ولكن من المؤلم أن يهبط الخير بين أنياب الشيطان ومدعي الفضيلة، قال بعض العلماء أنّ الإنسان يولد خيرًا بطبعه، وما يؤثّر فيه هو حصيلة البيئة المحيطة والصفات المكتسبة، سواء كانت صفات حميدة أو مسممة ودميمة، ولكن هناك بعض الفلاسفة يقولون أنّ الإنسان يولد وبين خلاياه جينات وراثية تحمل الكثير من الصفات الموروثة من الأجداد، وربما بعض الهوايات والفنون كذلك.

ولكنّني أقول لك عزيزي القارئ أنه إن وُجِد أحد الأشخاص الصالحين في مجتمع فاسد فإنّه قد يكون مكرماً من الله الذي منحه هبةً لا يتمتع بها جيله ممن حوله، وكذلك إن كان هناك فاسدٌ في مجتمع الأخيار فلعلّ الله ناقم عليه، ولكن السبب الفعلي والحقيقي والذي لا يعلمه إلا الله والقليلون من العلماء أنّ جينات الفرد تحمل منذ تكوينه في رحم أمه الكثير والكثير من صفات آبائه وأجداده قبل أن يولد، وسوف تدرك لاحقًا لماذا تطرقت إلى تلك النقطة.

هناك خلف الأبواب الزجاجية الموصدة يلتفون حول طاولة مستديرة بعدما جلس المحامي، ثمّ طلب من خالة أحلام -سناء- أن تنادي الجميع لأهمية الأمر، كما أنّه طلب منها إحضار وصية المرحومة "سعاد فهيم" الجدة، والتي

على حد علمه خلال آخر لقاء جمعه بها وهي على فراش الموت ألا تفتح الوصية إلا بعد مرور ثلاثة أيام، وأنّها سترسلها بطريقتها الخاصة والتي لم تذكر أمامه كيف، ولكن ما أكدته في حديثها أنّها ستكون في خزانة ملابسها، فذهبت سناء كما أخبرها المحامي وتوجهت إلى خزانة ملابس أمها وفتحتها وتحسست بيدها فوجدت لفافةً في ورق من "السوليفان" ولا تعرف ما سبب الرجفة التي أصابت أصابعها وهي تستعيد اللفافة وتهم بالانصراف، كان التوتر يخيم على ملامحها تشعر بأنفاس أحدهم خلفها، يداها توصد باب الغرفة ترتعش وكذلك أوصالها، أسرعت خطواتها والتفتت للخلف بحركة نصف دائرية ولكن لم تلحظ شيئًا غريبًا.

عادت بين الجالسين وهمَّ زوجها فوزي وأختها والدة أحلام -إخلاص- وزوجها عماد وكان على رأسهم الأستاذ مُنجز المحامي الذي لا أحد يعلم هل حقًّا هذا اسمه أم أنها صفة قد أطلقت عليه لما يقوم به من مهام قانونية من براعةٍ وإتقانٍ، مدَّت يدها باللفافة فتلقفها منها منجز وارتدى نظارته الطبية ولكن حين بدأ في فرد الورقات الملتفة ارتعشت الإضاءة والمصباح صار يتأرجح كأنّ تياراً هوائياً أصابه، رغم أنّ النوافذ جميعها مغلقة، هناك أدخنة تتصاعد من أسفل الغرف جميعًا لا أحد يعلم مصدرها إلى أن وصلت غرفة أحلام مما جعلها تنهض مذعورة تصيح بصوت متقطع:

أمي أمي أين أنتِ؟ أين ذهبتم جميعكم؟

هبطت الدرج وهي تسد أنفها بكفها الصغير تسعل من الدخان ولا تتضح الرؤية أمامها تعلو بصوتها تنادي مرة أخرى:

أمي أميييييييييبي أين أنتِ؟ لماذا تركتني بمفردي؟

الإنارة في السقف تُضاء وتُطفَأ، قلبها يرتعد وعيناها تراقب ما يحدث، قدماها تتخبط ومع هبوطها سمعت إخلاص نداء نجلتها ففتحت الباب وانطلقت نحوها إذ قد رأتها وهي تهوي أمام ناظريها من على الدرج، لتنطلق من الأخيرة صرخة:

أغيثوني أنتِ فقدت الوعي هلمّ بالماء يا سناء أرجوكِ

وراحت خالة أحلام وعادت بالماء، أمسكت أمها بالكوب ونثرت قليلًا من الماء على وجهها، حتى أفاقت واستعادت وعيها، وقف الحضور حولها بينما جثت جوار ابنتها كانت عينا مُنجز تدور في محجريها وكأنه يراقب شيئًا ما، وقفت سناء جواره تسأله وتحدق فيه وصوتها منخفض:

ـ ما الأمر؟ يبدو أنك تبحث عن شيءٍ ما، فهل وجدته؟

نظر لها باستقطاب ولم يُجب، كانت لا زالت الإنارة ترتعش والدخان كذلك الصمت عم المكان بينما تسعل أحلام إلى أن قطع مُنجز هذا السكون:

ـ هناك أحد يراقبنا.

كلمته جعلتهم يشهقون جميعًا، تبادلوا النظر بأعين متسعة بقدر الدهشة لسان حالهم:

ـ من؟ من الذي يراقبنا؟ وكيف عرفت؟

ابتسم ابتسامة مصطنعة:

ـ كل ما حدث هذا إشارة من روح السيدة سعاد ينذرنا أن هناك من يندس بيننا ويراقبنا ليعرف ما تنص عليه الوصية.

صاح عماد والد أحلام والذي يُعد قليل الكلام، إنه شخص كتوم وهادئ الطباع إلى حد ما:

ـ ماذا علينا فعله؟ هل نفتش البيت؟

- لا لا الأمر لا يستدعي ولكن سأذهب الآن ومعي الوصية وسأعود في الصباح أتمنى لكم ليلة سعيدة.

وراح يضحك ضحكةً ساخرةً جعلتهم يستنكرون لفعلته تلك وبعد رحيله ومعه الوصية عمّ الهدوء واختفى الدخان، ولم يعد له أثر وكذلك الإضاءة، ذهبت كلٌّ من إخلاص وشقيقتها كلتيهما إلى غرفتها مصطحبتين أولادهما تاركتين زوجيهما، كان الرجلان يتهامسان فيما بينهما ولعجيب الأمر بادر عماد والد أحلام بسؤال رفيقه وكأنّ الحيرة حلت عقدة لسانه:

- أتظن أن هذا المحامي يحتال علينا؟

ـ لا أظن ولكنْ هناك في الأمر سرٌّ ولا بدّ من كشفه.

- أتصدّق ما قاله عن أن أحد يراقبنا؟ إنني لم أسترح لهذا الشخص منذ الوهلة الأولى.

ـ وأنا كذلك ولكن غدًا سيتضح كل شيء تصبح على خير.

ذهب فوزي متجهًا نحو غرفته ليخلد إلى النوم تاركًا عماد بمفرده فراحت الأفكار تتلاحق في رأسه وكأنها في سباق وربما هو صاعد الدرج متجه لغرفته لمح بطرف عينه ظلًّا أسود خلف نافذة غرفة الضيوف؛ فأسرع عماد متجهًا إلى غرفته وأغلقها عليه واستسلم للنوم، فراح في سبات عميق، بينما الجميع نيام كان هناك من يتسلل من البيت لا يعرف إلى أي وجهة يسير ولكن ربما وجد ضالته.

****

الفصل الثامن
الوريثة

وفي آناء الليل دلف أحدهم من البيت يتلفت حوله يراقب الطريق هل أحد يتبعه أم وحده يتسربل بالخوف ويتخذه مذهبًا، سارت بقدميها المنمقتين يعلو صدرها يتخلله نفحات الهواء الباردة تشتّمُ عطر الموت الذي يسود المكان، تزدرد ريقها الجاف إلى أن تصاعدت الأبخرة واقتحمت أنفها تزكمها من أمام القبر الماثلة أمامه، ما كان إلا شبح جدتها بهيئته الضبابية وملامحها المجعدة وفمها الخالي من الأسنان:

ـ لماذا تأخرتِ في المجيء؟

ـ تحرك رأسها نافية: لا يا جدة لم أتأخر ولكنّني... ولكنّني (تطأطئ رأسها في الأرض وتعاود السعال)

- ولكنك ماذا يا صغيرتي؟ سلامتك أعدك لن يؤذيكي أحدٌ ولو بعد وفاتي.

ـ وهل أحد يريد إيذائي يا جدتي؟

- أنصتي لي لا بدّ أن تنصتي إلى سماع الوصية وهي تُقرأ، ولا بدّ أن تجدي أنتِ الكنز أتسمعيني؟

ـ أي كنز؟ ولماذا أنا؟

- أنتِ وريثتي يا أحلام والجن سيخضع لكِ ولكن عليكِ ألا تخالفي أوامره.

فرغت فاها من الصدمة وتوقفت أنفاسها فجأة مما سمعت وهي تتهجأ ما أُلقي على مسامعها بصوت خافت:

ـ ماذا؟ جن؟ أوامره؟

ثمّ أصاب جسدها النحيل نفضة من الخوف وبدأت تذرف الدمعات متوسلة لروح جدتها:

ـ أرجوكِ أيتها الجدة أنا أضعف من كل هذا لماذا اخترتِني أنا بالأخص؟ لماذا ألقيتِ كل هذا على عاتقي؟

ثمّ فجأة سقطت الفتاة مغشيًا عليها، وما من الرّوح إلا أن أعادتها إلى غرفتها في لمح البصر، ولكنها لم تتركها بل ظهرت لها في منامها ولكن كانت ملامحها تنم عن التوعد وعدم الخير:

ـ أنصتي لي الأمر ليس بهين، ولن يخضع الجنُّ إلا لكِ، لكِ أنتِ فقط إنني قد قرأت عليكِ تعويذة حينما ولدتِ بين يديّ من أمُك التي هي ابنتي؛ وذلك لأنهم أخبروني أن أول مولود سيكون همزة وصل لا يمكن لأحد قطعها بيننا وبينهم، بين الإنس وبين الجنّ، أحلام ثقي بي ولا تخافي نعم لا تخافي لا تخافي.

وبدأ صوتها يتلاشى وصورتها كذلك بدأت في الاختفاء إلى أن شعرت الفتاة بشيء يقبض على عنقها شيء هلامي، وكأن أصابع ستقتلع روحها أو تؤلمها لترد إليها روحها، فنهضت بصرخة مدوية وقامت ونادت على أمها التي كانت في الغرفة المجاورة لها؛ فنهضت للتوّ على صوت ابنتها ودلفت إلى الغرفة وجدتها في صورة يُرثى لها، شعرها مبعثر والنوافذ مفتوحة على

مصراعيها ونعولها متسخة وبها جروح وتشققات فاحتضنتها وضمتها إلى صدرها بقوة فاختبأت الفتاة في أحضان أمها بقوة وهي تبكي:

ـ أمي هل جدتي كانت تتعامل بالسحر؟

جاء السؤال ألجم فم الأم وبدا عليها القلق والتعرق، ترددت في الإجابة ولكن جاء ردها غير ما توقعت:

ـ لماذا تسألين مثل هذا السؤال؟ هل أصابك سوء؟

- أرجوكِ أجيبيني يا أمي فأنا لم أعُد أحتمل.

وانخرطت في البكاء فعادت أمها تضمها بحنان وأخذتها وغسلت وجهها بالماء الفاتر تحت الصنبور:

ـ جدتك كانت من الطيبين لا تخافي ولا تهابي شيئًا يا حبيبتي، هيّا بنا نتوضأ ونصلي ركعتين عسى يستريح قلبك ويطمئن وفي الغد سيتضح الكثير.

وفعلًا كما قالت الأخيرة وصممت الفتاة ألا تغادرها أمها وتبيت معها تلك الليلة التي ضحى منها الفجر وبزغ، فما بقي إلا سويعات قلائل ويشق الصباح برودة الليل وقسوته، وما إن لاح الصباح إلا وجاء الضيف المنتظر بل والضيف المزعج يعلو وجهه إشراقة وكأنه مدعو لحضور عُرس واصطحبوه كما حدث بالأمس إلى غرفة الضيوف ولكن جاء دور إخلاص والدة أحلام لتنضم إلى الحاضرين إلا وصمّمت أحلام أن تحضر معهم، ورغم نفور الجميع من طلبها هذا واستنكار والدها لهذا الطلب إلا

أن زوجته حدقت به باقتضابٍ اعتراضًا، بينما قابلت طلب فتاتها بالابتسام والقبول.

أخرج مُنجز اللفافة من جيب سرواله وهو يبتسم ابتسامة بلهاء في مكر متسائلًا:

ـ هل الجميع على استعداد؟ أم أنّ هناك ما يعرقلنا مرة أخرى؟

حدّق في وجوه الجميع فأومؤوا بالإيجاب وآخرهم عماد والد أحلام الذي أشار له أن يتفضل:

بناتي وأزواج بناتي وأحفادي وحفيداتي إليكم جميعًا وصيتي أنا المقرة أدناه/ سعاد فهيم:

أقر وأنا في كامل قواي العقلية أني تركت ما يقارب من مكيالين مملوأين بالألماس والحليّ المُطعّم بالياقوت الحُر، وذلك في مقبرة توجد بالبر الغربي لمقابر الأسرة الثامنة عشر من المقابر الفرعونية وصاحب المقبرة يُدعى/ عين حور، ولكن على من يريد الحصول على نصيبه من الكنز أن يحل الشفرة الخاصة بالكنز، وأن ينفذ كلام الحراس الماثلين أمام المقبرة، الكنز ملك بالكامل لحفيدتي أحلام، وهي وحدها من عليها التصرف فيه وتقسيمه بينكم بالتساوي دون نزاع ولا يحق أن يستولي عليه أحد دون علمها؛ لأنه سينال عقابه من حراس المقبرة، عليكم إيجاد الكنز وتوزيعه فيما بينكم قبل وصول ابن أختي حامد والذي لقبه سارق الأحلام وإلا

سينال منكم شر نيل، والله على ما أقوله شهيد والسلام ختام، إمضاء/ سعاد فهيم.

حدّقوا جميعًا في وجوه بعضهم البعض ولكن كانت ردة فعل عماد والد أحلام أغربهم وقف بجوار منجز واختطف منه اللفافة المدوّن بها الوصية وهو يعقد حاجبيه والشرر يتطاير من عينيه:

ـ ما تلك الخرافات التي تلقيها على مسامعنا؟ كلام تخاريف لا يعقله أحد، وقفت إخلاص وهي تكز على أسنانها:

ـ من فضلك لا تتهكم على المرحومة أمي.

ـ إنها سيدة مخرفة كبرت في السن وماتت وتركت لنا بلاء خرفها، هل نحن حمقى لنصدق تلك الخزعبلات؟

أحلام نهضت من بين يدي أمها:

ـ أرجوك يا أبي لا تقُل مثل هذا على جدتي حتمًا إنها صادقة.

فما كان منه إلا أنه اندفع بقوة نحو الفتاة وصفعها صعفة أحدثت شرخًا في نفسها وطرحتها أرضًا:

ـ اخرسي أنتِ، حتمًا يعجبك ما سمعتِه، فتاة صغيرة صعلوكة مثلك تتحكم بمصيرنا نحن؟ يا للعجب!

قالت وهي تبكي من أثر كفه على وجنتها:

ـ سامحك الله يا أبي ولكن هذا ما قالته لي جدتي ووعدتني أنها ستحميني.

ظل عماد يتهكم على ما سمعه من الوصية، أما عن فوزي نظر لزوجته وتبادلا النظرات في صمت مبين ولكن يحمل الكثير من الصمت المكلوم.

أغلق منجز الوصية وخلع نظارته الطبية وارتدى أخرى شمسية وهو يتنهد قائلًا:

ـ إذا لم يعجبك ما سمعت يا سيد عماد فعليك الانسحاب.

قالها وهو يراقب ردة فعل محدثه التي لم تكن إلا بركانًا من الغضب.

والعصبية فامتعضت إخلاص ساحبة ابنتها وتنحت بها جانبًا وهي تنظر لشقيقتها:

ـ أظن يا سناء أن الأمر يخص كلتينا.

فما من عماد إلا أن نفث غليونه المشتعل وانطلق من البيت لا أحد يدري ما وجهته، وأما عن سناء فحدّقت بالمحامي بنظرة استنكارية رافعة حاجبها الأيسر:

ـ ألم تجد مع الوصية شيئًا؟

ارتبك المحامي ولكن أجابها وكأنه تذكر شيئًا ما مبتسمًا:

ـ نعم هناك تلك الخريطة لقد نسيتها سامحاني.

فاختطفتها من يده وجثت على ركبتيها تتفحصها ولكن وقف أمامها ظلٌّ أسود وكأنه ملاك الموت الذي عاد ليأخذ روح من يقف أمامه.

الفصل التاسع
خطوة للوراء

هناك وخلف جدران إحدى البنايات الشاهقة التي صُممت كقصر وربما كقلعة أو حِصن، هناك من يختبئ من ذكرياته التي تناساها الجميع عدا هو، شاب في الثلاثين من عمره نحيف قليلًا شعرات الشيب لم تنل منه بعد ولا من لحيته المتناثرة، جلس متكئًا بظهره على كرسيه الهزاز عقله المشبع بالانفعال يتأرجح مثله بين الحاضر والماضي، عاد بالزمن لنحو ما كان عليه قبل عشرين عامًا مضت، حيث كان لم يتعدَّ العشر سنوات، لا يعي إدراكه من ملامح الدنيا ما يضمره الكِبار ضمن أرفف المجاملات، لم يدرك سوى ما كان يقرأه في أوجه المحيطين ويكذبه في أفعالهم، فتى صغير ضعيف البنية يميل إلى الوحدة ليس بإرادته ولكنه مجبرٌ، تذكر سور حديقته النصف مبني بالطوب والذي احتضن الكثير من شجيرات الفاكهة والياسمين، كان يعشق تلك الرائحة فهي تذكره دومًا بحنان أمه التي كانت تحتويه كاحتواء تلك الحديقة لأزهارها، يتوسطها نافورة مياه صغيرة على هيئة حورية أو نصف جسد فتاة وذيل سمكة والمياه تخرج من فمها لتسقط في النافورة منظرًا يضفي للعين بهاءً.

استرجع بمخيلته ذلك المشهد الذي ضمّه حينما كان يلهو على الأرجوحة ووقفت جواره أمه تهدهده بلطف تحت أشعة الشّمس الدافئة، وجودها كان يضفي على المكان بهجةً ودفئًا لا يضاهيهما مثيل خصيصًا أنه لم يرَ والده سوى مرات قليلة؛ بسبب ترحاله الدائم وفقًا لما يتطلبه العمل ويستلزمه من التنقل المستمر كأي ضابط طيران ملتحق بإحدى الشركات، وأما عن

أمه في تلك الفترة اتشحت بالإرهاق والذبول بعد سفر أبيه مباشرة، يذكر يومًا حين جلست تحاوره وهو يمارس شقاوته المعتادة:

ـ التزم الهدوء يا حامد فأنا متعبة

ـ لماذا يا أمي؟ أهل أنتِ مريضة؟

ضحكت الأم وتوردت وجنتاها خجلًا:

ـ لا يا بني بل أنا حبلى وسألد لك أخًا أو أختًا في القريب العاجل بإذن الله.

عبس وجهه حزنًا لما أفاضت به على مسامعه وزمجر قائلًا بصوت الغضب:

ـ أنا لا أريد أحدًا لا أريد! واستطرد قائلًا: لماذا تتعبين يا أمي؟ أريد فقط أن تضحكي وتلعبي معي ولا أريد أحدًا سواكِ لا أخ ولا أخت فقط أنتِ.

صمتت أمه قليلًا بدا عليها الوجوم والألم لقد شعرت بالأسى من كلماته غير المقصودة ولا تعرف بماذا تجيبه فظلت تلاطفه مجددًا:

ـ هوّن عليك يا بني فسوف تفرح بميلاد أخٍ لك أو أختٍ ستكون سعيدًا أعلم هذا صدقني.

ودون إرادته احمرّ وجهه واستشاط وبدأ يصرخ في وجهها باكيًا:

ـ أنتِ أمي أنا ولا أريدك أن تكوني أمًا لغيري، ولا تلعبي مع أحد غيري فأنتِ تلعبين معي وتطعميني لا أريد سواكِ يا أمي.

جذبته أمه وربتت على رأسه برفق واحتضنته بقوة، ثمّ قبّلت رأسه وهتفت بصوت يتخلله المرح:

ـ هل رأيت ماذا أحضرت لك؟

جفف دمعاته المتساقطة الساخنة من وجنتيه وابتسم لها في لهفة للمعرفة:

ـ لا ماذا أحضرتِ لي؟ أريني هيّا هيّا.

وظل يجذبها من يدها ويدعوها راجيًا وملحًّا في طلبه أن تطلعه على ما قد أحضرَت حتى استجابت، أمسكت كفه الصغير بيدها في حنان واصطحبته معها. وجدها تسير في طريق عكس اتجاه باب البيت الكبير الذي يترأس الحديقة ونزلا كلاهما درجًا منزويًا لم يكن يعلمه من قبل، كانا محنييّ الظهر لضيق السُلم إنه مكان يشبه السراديب؛ فتعرقت الأم أما صغيرها كان مندهشًا فبادر بسؤالها:

ـ إلى أين نحن ذاهبان يا أمي؟

نظرت له تتفحصه ولم تُجب وأكملت السير، ثمّ تحسست أكباس الإنارة وجد نفسه إذ به في حجرة صغيرة وضيقة جدًّا مرَّا داخلها بالكاد، وهناك نافذتان صغيرتان جدًّا إحداهما مغلقة والأخرى مفتوحة، شبّ على قدميه كي يرى على ماذا تطل؟ فوجد أقدامًا تسير وجزءًا من الحشائش، حقًّا إنها الحديقة بالطبع فهما أسفل البيت.

تنفث بقوة وهو يهز رأسه غير مصدقٍ مرور الزمن يتأمل محتويات الغرفة طاولة صغيرة عليها كوبان من الشاي ويظهر عليهما العفن مما يدل على مرور وقت من الزمن على احتسائهما وهناك بعض ألواح الخشب الطويلة الملقاة باستمالة جوار الحائط الجانبي، وعلى الجانب الآخر جلست أمه على أريكة خشبية عارية من الأقمشة ويكسوها الأتربة الكثيفة جلس

جوارها إلى أن وجدها تنحني وتمد أصابعها بمفتاح يتحسس شيئًا ما في الأريكة أنّ بها قفلًا موصدًا، انتفض الفتى ووقف تجاه باب الغرفة يراقبها ماذا تفعل حتى انتهت من فتح القفل ومدت يدها داخل الأريكة إذ بها فراغًا وبعد لحظات أخرجت يدها وبها صندوق، ثمّ نادت فتاها وهي تشير له بيدها:

ـ هلم يا حامد لماذا تقف بعيدًا يا بني؟ لا تخَف هيّا تعالَ سريعًا.

يحملق، عيناه يملؤها الفضول، لسان حاله: ماذا تفعل أمه وأين هما؟ ينقل بصره بين عينيها وبين الصندوق واضعًا إصبعه في فمه ببراءة يكز عليه بأسنانه.

عادت تلوح له ثانيةً وهي تبتسم:

ـ لا تخف إنني سأريك ماذا أحضرت لك. وهمست بصوت خافت: انظر إلى هذا الصندوق إنه خريطة الكنز إنه إرثك يا فتاي احتفظ به بين أضلعك ربما واجهتك المصاعب ولكن عليك ألا تستسلم خصيصًا أنّ خالتك سعاد إن وجدته ستطردك وتطردني وتطمع فيه.

حدّق بها بعينيّ البراءة لا يعي ما تقول:

ـ لماذا يا أمي؟ أهل هي لا تحبني؟ أم أنها لا تحبك أنتِ؟

كان يفحص الصندوق بعينيّ الدهشة إنه من الصاج العتيق المعشق بالصدأ بين جنباته خريطة بها رموز وطلاسم لها العجب، وأما أمه فكانت تحنو عليه تنظر له بنظرة تملؤها الشفقة وفي حيرة وشتات من أمرها:

ـ أنصتْ لي يا حامد، خالتك تعمل في السحر الأسود الذي يؤذي الخلق وأصحابه والذي به ابتعدت عن الله فلا تتبعها ولا تدعها تتملك منك، وقف بخطىً قلقة ملاصقًا لأمه، تتخلل عينيه دمعةٌ تحمل خوفَ الأيام القادمة يتفحص الصندوق وهي تفتحه وهناك رسومات غريبة في جدار الصندوق جماجم ومفتاح الحياة واسمًا حُفرت أحرفه منفردة إن هذا الاسم في ذيل الخريطة أ ح ل ا م.

****

الفصل العاشر

السيادة

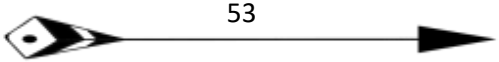

نهض من كرسيه زاعمًا أن يفعل شيئًا ما يقطن بين أضلعه، راح يذرع المكان ذهابًا وإيابًا مشتت الفكر، ولكنّ شيطانه يحثه أن يذهب مرة أخرى إلى منزل المرحومة سعاد فهيم خالته، عاد حامد وتطرق بأذنيه ليكون على علم بكل ما يدور هناك كل ما شغل عقله هو كيف يعيد تلك الخريطة التي منحته أمه إياها؟ بداخله بركان من الألم ولكن امتنع دمعه عن الهطول فقد تحول لبلورات من الجمر تعلوه أحرف الانتقام من كل هؤلاء الذين خذلوه يومًا ما، يرفع الجوال على أذنه يدير مكالمة يهاتف أحد الأشخاص التابعين له:

ـ ألو.. هل توصلت إلى أي شيء؟ لا بدّ أن نصل للكنز قبلهم.

- لقد انتشرت الرجال في البر الغربي لاهثين في البحث والتمحيص وسوف نوافيك بكل جديد.

ـ هذا ليس كافٍ أتسمعني! ليس كافٍ.

- يا زعيم ليس الأمر بتلك السهولة فالمكان مليء بالعاملين؛ لأنها منطقة أثرية كما تعلم.

اختلط بنبراته حدة الغضب:

ـ لا تعطِني أدنى مبررات وإن أخطأت فسوف يكون عقابي لك أشد من الموت، أفهمت؟

- أرجوك يا زعيم أن تقدر موقف من يعملون معي وطوعًا لأوامرك كيف لهم أن يجدوا كنزًا دون علم المكان؟ إنه من الصعب بل من المستحيل.

يجيبه حامد وقد تبدلت ملامحه التي لا يتبينها الآخر عبر الهاتف ولكن ربما استشفّها من فظاظة صوته وقد ازداد انفعالًا:

ـ سأقطع عليك خيط حجتك المتكرر سأجلب الخريطة بالقوة رغمًا عن أنف الجميع ولو زهقت أرواحهم في المقابل.

وأنهى المكالمة وهو يكزّ على أسنانه ويحدث نفسه بصوت الحنق: سأنتقم لكِ يا أمي فما عليكِ إلا أن تستريحي في قبرك دون قلق؛ فلن تنعم خالتي سعاد في حياتها ومماتها أيضًا سأرد لها الدين أضعافًا مضاعفة.

ثمّ تذكر شيئًا ما، أمسك بالهاتف مرة أخرى واتصل بأحد أتباعه المخلصين وقد بدا عليه المكر والدهاء يخالطهم ابتسامة ترضي كيده:

ـ ألو نعم.. أريدك أن تتخذ اثنين من مرافقيك وتتجه بهما إلى المنزل سأتلو عليك عنوانه.

- وماذا سنفعل هناك؟ وبأي حُجة نبرر دخولنا؟

ـ ستخبروهم أنكم تتبعون شركة أمن وحراسة وهي مكلفة بحماية المنطقة وعمل الإجراءات اللازمة.

- وبعدما يسمحون لنا بالدخول!

يتحدث بلهجة الصياد الذي سيوقع بفريسته عن قريب:

ـ ما عليكم إلا أن تزرعوا بعض الكاميرات في أماكن متفرقة دون علمهم، وحين تنتهي أخبرني.

أومأ الأخير رأسه وهو يردد:

- سمعًا وطاعة يا سيدي عُلم وينُفذ.

أغلق الهاتف ووضعه على الطاولة القريبة من يده وهو يضحك ضحكات يتخللها علامات الانتصار ويصفق ببطن كفيه كالأطفال.

وعلى صعيدٍ آخر هناك في منزل العائلة في حين كانت سناء تتفحص الخريطة وتتأملها وتقلبها بين يديها في اندهاش هناك يد خشنة قد باغتتها عنوة وجذبت منها الخريطة بقوة فرفعت سناء رأسها في اندهاش وهي فاغرة فمها وقد انتابتها رعدة، فما منها إلا وجدت عماد زوج شقيقتها يتصدر لها وهو ممسك بالخريطة في يده؛ فنهضت تقف على قدميها وهي عاقدة حاجبيها ويبدو عليها الغضب:

ـ ألا تخجل من نفسك! بأي حق تجذب مني الخريطة؟ هل تعتقد أن لك نصيب في ذلك الإرث؟

ـ هل تمزحين؟ إنني لي مثلكن تمامًا وإلا...

وقبل أن يكمل حدّق بها بنظرة استنكارية وابتسم ابتسامة ماكرة تنم عن الضغينة والحقد المبين في قلبه بسبب هذا الإرث، إلا أن ثورة سناء العارمة وصلت إلى مسامع أختها التي جاءت تلهث وقلبها يرتعد لأول مرة تسمع صوت شقيقتها يرتفع، سارت بخطىً سريعة بدا على ملامحها الاصفرار وصلت بينهما تتبادل النظر إلى شقيقتها وزوجها اللذين يبدو عليهما الغضب لسان حالها:

ـ ماذا! ماذا حدث يا سناء؟ هل تتعاركان؟

- الأولى أن توجهي أسئلتك إلى هذا الرجل، إنني أندهش كيف احتملتِه طيلة تلك السنين؟

فصاح وعلى وجهه غضب زأر بصوته كأسد جائع:

ـ سنااااء لا تنسي نفسك لولا أنكِ شقيقة زوجتي كان لي معك تصرف آخر.

- فلتعتبرني لست من العائلة وأرِني ماذا ستفعل؟

وقفت إخلاص تحملّق في عينيه تجتهد أن تحتفظ بهدوئها ولكن أبخرة ثورتها تتصاعد، ثمّ فوجئت بصوت يأتيها من الخلف إنه فوزي جاء صوته هادئًا:

ـ لماذا تتشاجران؟ أهذا هو اتحادكم في البحث عن الكنز؟

حدّقت به زوجته سناء في اندهاش تصاحبه شهقة:

ـ هل هذا كل ما فعلت؟ أتدري العراك بين من؟ إنه أنا يا زوجي العزيز تفضل سأخبرك بما حدث.

وبعدما تلت على مسامعه ما حدث لا زال محتفظًا بهدوئه في أساريره لا أحد يدري ما سببها، اقترب منها يربت على ظهرها وأفعمها بقبلة على جبينها:

ـ حبيبتي لا تَدعي شيئًا مهما كان يفسد صفوك ويعكر يومك، جميعنا مرهقين ذهنيًّا، عليكِ أن تمتصّي غضب من حولك.

لا زال يتحدث بابتسامة رائقة، ثمّ يحيد بنظره نحو عماد الذي كان يتوارى بعينيه من الخجل يلوذ من نظرات اللوم عما بدر منه إلى أن بادر وهو مطأطِئ الرأس:

ـ أعتذر منكِ يا سناء لا أدري ماذا أصابني في الآونة الأخيرة.

بادلته الابتسام على مضض:

ـ لا عليك.

زفر فوزي زفيرًا كاد يكون عبئًا على صدره وصاح محاولًا جذب انتباههم:

ـ الآن فلتجلسوا جميعًا وعلينا أن نبدأ في البحث، هناك خطة لا بدّ أن نضعها في أقرب وقت ممكن.

سناء جلست بجواره متسائلة:

ـ ما يجول في رأسك يا زوجي العزيز؟

فجلس جميعهم يتهامسون ولكن بينما انعقد الجمع رن أحدهم جرس الباب، أوقع الخوف في قلوبهم، ليحدّق كل منهم في وجه الآخر، لسان حالهم من سيأتي لنا دون موعد في هذا الوقت بالتحديد!!.

****

الفصل الحادي عشر
السرّ

إذا أوقعت ضررًا بمن كان لك عونًا في السابق فعليك أن تتحمل وزر ما زرعت؛ لأنّ لكل زرعٍ لا بدّ من حصاد ولكل ظلمٍ لا بدّ له من نهاية، ولكن هناك من يتحمل الظلم مستسلمًا بكامل إرادته لله، وهناك من يجرفه ليُبدل ملامحه ليتحول ذاك الحَمل إلى ذئبٍ يومًا ما، فعليك أن تتحمل بطشه؛ لأن تلك الساعة هي وقت الحصاد.

لا زال أفراد الأسرة ملتفين رؤوسهم في إثر بعض يتفقدون الخريطة المبهمة الماثلة بين أيديهم يتأففون لا يدرون من أين تكون البداية كل يردّد أفكاره بصوتٍ عالٍ في مثل اقتراح وهناك من يحملق في وجوههم لا يعي ماذا يفعل كل ما عليه أن يراقب كيف يفكرون، إلى أن قطع أحدهم هذا الشتات مردداً:

ـ وجدتها!

نهضت سناء وهي متلهفة أن يخبرها زوجها كيف:

ـ قل سريعًا ما يدور في رأسك لقد أرهقني التفكير ولا أدري ما العمل.

ابتسم لها جاذبًا إياها من معصمها لتجلس جواره:

ـ لا تنزعجِي يا عزيزتي استريحي قليلًا.

ثمّ استطرد موجهًا كلامه للباقين: الوصيّة تخبرنا نصيًّا أن الكنز في البر الغربي، إذًا علينا أن نبدأ في التحرك، لا بدّ أن نستعد.

قاطعه عماد وهو ينتابه الغضب غير المنطقي:

ـ كيف بهذه السرعة؟ هل لك حق إصدار الأوامر أيها الجنرال وعلينا التنفيذ؟ إنني لم أستعد بعد لم أتخذ إجازة من عملي حتى أرافقكم.

- يا عزيزي لا عليك انتبه لعملك أنت وليس من الضروري أن ترافقنا وربما يكون ذلك لصالحنا حتى إذا حدث لنا مكروه فيكون أحدنا بخير للبحث عنا وتبليغ الشرطة.

تكلمت إخلاص أخيرًا بعد طول صمت وهي تتابعهم وكأنها تشاهد فيلمًا سنيمائيًّا:

ـ ماذا تقول أنت إبلاغ الشرطة؟ اعتقدتُ أنك أذكى من ذلك ولكن واأسفاه، أتريده أن يبلغ الشرطة إن فقدنا حتى إذا تم إنقاذنا مما نحن صرنا عليه أمسكتنا الشرطة بتهمة العبث بين المقابر الأثرية، وقضينا باقي العمر خلف القضبان، ولكنّني أرجح أن يظل أحدنا هنا ليرعى الأولاد ويكون على اتصال بالباقي أثناء ترحالهم لمدّهم بأي عون، ولكن قالتها، ثمّ قاطعها رنين الباب الذي كان صاخبًا يبدو أن من بالخارج على عجلة من أمره فانطلقت إخلاص نحو الباب تفتحه وطلّت برأسها تبحث يمينًا ويسارًا ولكن لم تجد أحدًا، فدلفت من الباب خطوتين للأمام لتتمكن من رؤية أين ذهب الطّارق ولكن هناك ما عرقل قدمها في السير، إنه يوجد أسفل بجوار قدمها صندوق كبير في حجم مترين في متر انحنت إخلاص وهي مرتابة وحملت الصندوقَ ذا اللون الزهري ودلفت للداخل فما منهم إلا أن تساءلوا لسان حالهم:

ـ من الطارق؟

فلم تُجب واتجهت نحو المائدة لتضع الصندوق وتفتحه لترى ما بداخله، فككت اللفائف التي حوله والأشرطة المزركشة ونحتهم جانبًا وانفتح أمامها لترى أن ما يحويه هو دمية بطول الذراع رائعة الجمال وشعرها معقوف بشريط وترتدي زيًا أبيض ناصع اللون مرصعًا بالزهرات الحمراء ولكن وجه الدمية به شيء غريب قد لفت انتباهها.

- ما هذا إنها دمية وتبدو رائعة ولكن ما هذا القطع الذي في صدغها وتلك العلامة الغريبة!

كانت تقف بجوارها شقيقتها سناء وكذلك أطفالهما الصغار ولدا سناء ومازن واللذين التفّا حول المائدة منتظريَن أن يفوز أحدهما بالدمية ولكن اعترضت إخلاص مربتة على رؤوسهم:

صغاري الأحباء إن الدُمى من ألعاب الفتيات وأما عنكم فلا يليق بكم تلك اللعبة وأعدكم غدًا أو بعد غدٍ سأحضر لكم بعض الألعاب النارية والإلكترونية المحببة.

فما أن سمعوا ذلك قطّبوا وجوههم وصاح مازن:

ـ ليتكِ تصدقين يا أمي في كل مرة تعيديني ولكن سريعًا ما تتناسين، هيا هيا يا رفاق نذهب للعب.

وذهب ثلاثتهم وفي ملامحهم ضيق بينما نادت إخلاص على فتاتها أحلام لتمنحها إياها، ولكن اعترضها عماد موبخًا:

ـ كيف لكِ أن تأخذي شيئًا لا نعلم من الذي أرسله وكيف ولماذا؟ وأين ذهب هذا الراسل؟ أقل الأمر أن نتقدم له بالشكر.

تطرقت إخلاص لكلام زوجها ووجدت أنه محق في كلامه ولكن وارت عينيها خجلة فبادرت بالاعتذار:

ـ آسفة حبيبي ولكن ما حدث أني اتخذتها ربما السّماء أرسلتها لابنتنا.

- لا عليكِ ولكن السّماء لا ترسل هدايا مجهولة المصدر، كما أرسلت لنا تلك الفتاة التي ليست بابنتي ولا زالت مجهولة المصدر.

حدّق بها بنظرة استنكارية جعلتها تشعر بالحزن والدمعات فرّت من عينيها واقتربت منه معاتبة:

ـ لماذا دومًا تذكرني أن أحلام ليست ابنتنا وأنها ابنة الملجأ؟ أليس تلك إرادة الله؟ أليس من إرادة الله أن يتأخر الحمل وأصابُ بنوبة نفسية لا أتمكن وقتها من الإنجاب؟ أليس من إرادة الله أن نذهب ونتخذها لنا ابنة وتحمل من صفاتنا التي تربت عليها وكأنها ولدت من رحمي ومن جيناتك؟ انهمرت عيناها اللتان أصبحتا كجمرة لهيب من البكاء والتي جعلت كل من فوزي وسناء يبادلون عماد نظرات اعتراضية بها كثير من اللوم والاشمئزاز لما بدر منه قولًا، اقترب عماد ولا زال ينفث غليونه الذي قارب على الانتهاء، وكان سوف يحرق إصبعيه، صدره المُعبأ بالدخان والمُعبأ بالنقم المتواري ولا أحد يدري ما السبب، قد تعرّق وجهه يحدق بإخلاص ودمعاتها المؤلمة، اقترب منها ساحبًا كف يدها نحو شفتيه ليقبله في لطف

محاولًا أن يصلح ما أفسده، ولكنها سحبته منه فاقترب أكثر ليقبّل رأسها ويحتضنها بين ذراعيه، في حين فوزي وسناء كانا انسحبا تدريجيًّا نحو غرفتهما.

دلف فوزي إلى حجرته وهو عاقد حاجبيه على وجهه علامات الاستفهام وخلفه زوجته ليجلسا معًا ويبدأ في سؤالها الأشبهه بالاستجواب ليعلم مؤخرًا هذا السر في تبنّي كلٍّ من إخلاص وعماد للطفلة أحلام.

****

الفصل الثاني عشر
البر الغربي

هناك قَطنَ أصحاب الحضارة الفرعونية في المدينة العريقة كل يرقد في تابوته، المكان الأكثر جذبًا للسائحين وعشقًا للتراث وانتماءً للوطن "وادي الملوك" والذي يقع على الضفة الغربية لنهر النيل في مواجهة طيبة "الأقصر حاليًا" بقلب مدينة طيبة الجنائزية القديمة، والذي يشمل عدة مقابر تخفي العديد من الأسرار والتي من بينهم مقبرة الزوجين "يويا وتويا" تم الكشف عنها عام **1905**م أي قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بما يقرب من **17** عامًا وهي المقبرة رقم **46** وهما والدا الملكة "تي" زوجة الملك العظيم أمنحتب الثالث وجد وجدة الملك أخناتون، وقد حظي كل منهما على مكانة رفيعة حيث نُحتت مقبرتهما في وادي الملوك بالبر الغربي بالأقصر، هذا المكان الذي كان مخصصًا فقط لمقابر الملوك.

واسم الملكة "تي" يعني الجميلة ومن صفاتها الشخصية المحافظة واحترام التقاليد عميقة التفكير والحكمة لديها إصرار واضح للوصول إلى هدفها ومعرفة السمات الشخصية للآخرين صفات حاملة الاسم يمكن ملاحظتها بما تتميّز به كل شخصية بنفس الاسم والصفات والسمات التي تستقر في الوجدان والأذهان وتظهر على سلوكياتها الشخصية، ترمز الملكة الابنة للحلم المراد تحقيقه، كانت تلك المعلومات مدونة في أجندة عتيقة مندسة بين ملابس الجدة سعاد هانم والتي قد وجدتها سناء بالصدفة وجلست حوار خزانة الملابس تتفصحها وتقرأ كل حرف فيها وبجوار هذه

المعلومات وجدت مدونة هامشية بخط رقيق بقلم الرصاص وهي تي ـ أحلام، بهتت سناء لما قرأته وظلت الأفكار تتلاعب برأسها وتتخبط وهي جالسة قرفصاء أرضًا تحدث نفسها:

كيف كانت أمي تعلم أن أحلام فتاة يتيمة من الملجأ ورغم ذلك أسمتها هذا الاسم والذي يرمز لمكان الكنز ولماذا اصطفتها من بين أبناء بناتها هي دون غيرها.

ظلت تحدق في أحرف أمها المبعثرة فوق الورق وتفكرت أن تخفي تلك المعلومات عن أختها إخلاص ولسان حالها إنه لأمر محير، في حين كانت أحلام قابعة على نفسها ملامحها شاحبة منزوية في غرفتها بجوار النافذة والغرفة مظلمة وكأنها خاوية إلا من الحزن والأفكار، تتنفس الصعداء صدرها مثقل بأشياء كثيرة إلى أن طرق الباب أحدهم طرقة واحدة قوية وامتدت يده لتدير المقبض وتدلف إلى الداخل يخطو على أطراف أصابعه وكأن أنفاسه صارت صماء كملامحه إنها أمها، شعرت بدخولها أحلام تلك التي ترقد على الأرض، رأت أقدامها فارتابت إلى أن وصلت أمامها يغلف عينيها المنغمسة في الظلام لهفة الأم وحنينها:

ـ لماذا تجلسين هكذا يا فلذة كبدي؟

- نعم أمي أشعر أنني صرت غير مرغوبة من الجميع عقب وفاة جدتي

لم تُجبها الأخيرة فاستطردت مكملة حديثها بأنين:

ـ ما ذنبي أنا إن كانت قد اختارتني لتفرق بيني وبين عائلتي هكذا؟

اقتربت منها أمها وجثّت على ركبتيها لتكون في مقابلها ولا زالت تكمل:

ـ ما بي أنا والكنز والمال؟ ماذا سيفعل لفتاة في حداثة سني؟ يا أمي إنني في حاجة إلى دفئك أنتِ وأبي لا أريد كنوزًا.

ضمتها أمها إلى صدرها وهي تذرف الدمعات دون أن تشعرها بذلك، تعتصر ألمًا لما تعانيه الفتاة تربت على رأسها وشعرها المسترسل خلف ظهرها، كان ردها تنهيدة نتاج أنفاسها المشبعة بالحسرة والحيرة، وإذ فجأة دار المقبض ودخلت سناء بعشوائية دون أن تطرق الباب وهي تناديهم وكلاهما منزويين في الظلام، فأنارت المصباح تحثهم أن يستعدا وقد تذكرت الأجندة التي بين أناملها فنادت شقيقتها لتطلعها عليها سرًّا، أرادت إخلاص أن تأخذها منها ولكن دون جدوى وظلّا يتشاجران كفتاتين في العاشرة من العمر، ثمّ بادرت سناء بسؤالها مما جعلها تسمّرت في مكانها محملقة تتسع عيناها في دهشة صادمة:

ـ إخلاص أخبريني كيف لأمك أن تختار أحلام وهي تعلم أنها فتاة الملجأ لمَ كل ذلك الاهتمام؟

غضبت إخلاص وتنحت بوجهها وانطلقت تاركة أختها في حيرتها بينما هناك من توصل إلى مكان الكنز وأخبره زعيمه الذي أجاب على رنين هاتفه المستغيث: إنها أخبار سارة إذًا ما الخطب أن تقتحما المقبرة ليلًا؟

- نعم سيدي لك السمع والطاعة وسوف نوافيك بكل ما هو جديد.

وبعد غضون ساعات كرت إثر بعضها حاول حامد معاودة الاتصال برفيقه وذراعه اليمين ولكن كان الهاتف يعطيه نتيجة الاتصال هذا الرقم غير متاحٍ نرجو معاودة الاتصال في وقتٍ لاحق.

ومرَّ الليل بين انتظاره لمهاتفة من رفيقه وبين قهوته ورفيقاته من السجائر المحشوة وظلّ يحتسي الخمر كأسًا يلي الآخر إلى أن غلبه النعاس فاتخذ من كرسيه فراشًا وذهب في سباتٍ عميق، أفاق بعد الساعات الأولى من النهار يعاود الاتصال فتأتيه نفس الإجابة مجددًا يزفر بحنقٍ يخبط بقبضته على الكرسي الذي لا زال متكئًا عليه، ثمَّ دون سبب وجد أصابعه ممسكة بريموت التلفاز ويضغط زر التشغيل لتظهر الشاشة بذبذباتها وهناك شريط الأخبار المتكرر أسفل الشاشة "العثور على مجموعة من اللصوص محترقين في إحدى المقابر الفرعونية بالبر الغربي"، وإذ به يصرخ ويصرخ ويصرخ ليدخل في نوبة هيستيرية.

****

الفصل الثالث عشر

التعويذة

وقف يصرخ ويصرخ شعر بنفس الطعنة التي رشقت أحشاءه حين توفيت أمه، وقتها دهست خالته مشاعره حين عزمت أن تطرده لم تكن أمه مؤاربة لأختها في تلك الأسحار وفي تلك الخدع؛ لذا فهناك مثَل قديم كانت تقتاد به خالته سعاد "اليد التي لا تكسب ودها عليك بقطعها" وهذا حقًّا ما فعلته كانت تنبذ أختها والدة حامد تشعر أنها تذكرها دومًا بشرّ نفسها وتوقظ ضميرها المخدر بكلماتها اللاذعة، ولكن أمه تيقنت لما ستفعله أختها مع نجلها إن أصابها مكروه وتركته وحده بالدنيا لذا جاءته يومًا أمه وهي على فراش الموت وأكدت عليه ألا يترك حقه وإرثه وكنز أجداده وأن عليه البحث عنه وألا يهمل خريطة الكنز التي منحته إياها في الصغر، وحينما علمت سعاد بفعلة شقيقتها بعد رحيلها حاولت التقرب للفتى زاعمة أن الخالة بمثابة الأم ويحق عليها التودد وفعل أي شيء لتكسب وده ورضاه، كانت تضمه لعائلتها الصغيرة وبناتها وكأنه واحد منهم بل كأنه الابن الثالث لها، كانت حين ذاك إخلاص في ريعان شبابها بل في مبتدأ طريقها تصغر عنه حوالي خمس سنوات تقريبًا في سن الثامنة عشر كان يصطحبها أينما ذهبت وأينما جاءت كظلها، في قربها كان يشعر بالطمأنينة والراحة التي افتقدَها مبكرًا، بل كان يعوض يتمه في كنفها ورحاب طلتها المشرقة إذ هي البسمة التي تشرق صباح كل يوم فتظهر شمسه ويبتدأ نهاره في المثول كان يغلق رئتيه عن الأهوية إلا أن يشتم عطرها، شعرها المنساب كان يعلق بنظراته ليلًا ونهارًا إلى أن يختلي بحاله منفردًا، يرسمها وكأن

ملامحها قد حُفرت بين مقلتيه، في حين سعاد لاحظت كل ذلك محاولة استغلال الأمور عسى أن تكون يومًا لصالحها.

تراقب نظراته الولهانة لابنتها ولا تعلق بل تأخذ ابنتها جانبًا وتعطيها بعض التعليمات:

ـ كُوني حذرة يابْنتي، الفتى قلبه شغوف بكِ.

تبادلها النظر على استحياء معترضة:

ـ لكن يا أمي إنني لا زلت صغيرة على الحبّ.

تتلفت أمها يمينًا ويسارًا لتتأكد أنّ لا أحد ينصت إليهما؛ فتقترب تهمس في أذنها كفحيح الأفعى:

ـ حاولي أن تجذبيه إليكِ بالأكثر لا بدّ أن يدلي لنا بمكان الخريطة، والكنز من حقي أنا، لماذا تفكرت أمه قبل رحيلها أنها ستنال مني؟ بعدما لعنت إبليس بكل أعوانه!

كانت تحدّق بها إخلاص بعين مرتعدة وأصابتها رعشة في يديها حين هزّتها أمها وهي ممسكة بأكتافها تتحدث بنبرة الحقد مما جعل وجه الفتاة شاحبًا تميل برأسها رفضًا لما يصدر من أمها:

ـ أمي ألا يمكن أن تخرجيني من تلك الحلقة؟ أشعر بالخوف منكِ أحيانًا

- لا عليكِ ولا تخافي فقط كوني في بعض دهائي اجعليه يميل بقلبه لكِ حتى يبوح بكل شيء وبعدها، هاهاها.

ضحكتها رنت في جوف الفتاة أرعبتها:

ـ وبعدها ماذا يا أمي؟

- وبعدها اتركي لي كل شيء وأنا سأتصرف معه.

لا زال جالسًا يستعيد ذكرياته في هذا البيت ذكريات تؤلمه كلما أيقظها وكأنه سكب جراحي على جراح ممزقة فتشوهت وازدادت سوءًا، يطرق على جبينه ودمعاته يذرفها كطفلٍ بائسٍ يدور بمخيلته يومًا ما لم ولن ينساه، كان عائدًا من الجامعة، واليوم مفعم بالتدريبات وقد تعرض لضربة شمس قاسية فدلف إلى حجرته مكفهر الوجه والعينين تعلو منه درجات الحرارة والتي لو وضعوا عليها قطعة فحم لأشعلتها حرارته، في هذا اليوم كانت خالته قد أعدت مائدة عظيمة من الطعام إنه يوم عيد ميلاد إخلاص الفتاة ذات الملامح الملائكية، نادتها أمها لتساعدها في المطبخ لإعداد المائدة وحين انتهت حثتها على أن تنادي حامد ليشاركهم فتوجهت إلى حجرته وكانت المرة الأولى التي تذهب إليه بنفسها، تقدمت نحو الباب في حياء طرقت طرقتين وقالت بصوت رقيق:

ـ حامد لقد أعدّت أمي مائدة شهية اليوم، حامد هل أنت يقظ؟

كانت ستكمل ولكن انتبهت أنه لم يُجب فأعادت الطرق وكررت ما قالته مرات عدة إلى أن اندفعت للداخل بقوة مسرعة لتجده ممددًا فوق الفراش اقتربت منه تتفحصه، وجهه ذابل عيناه مجهدتان وشبه مغمضة وفمه يشقه الظمأ:

ـ إنني...

لم يستطع إكمال جملته لا زالت تشخص له بعينيّ اللهفة نبضها يتسارع:

ـ ماذا بك؟ ألست بخير؟

وضعت كفها فوق جبينه فانتفضت يدها من شدة السخونة في حين جسده يرتعد من الألم؛ فنهضت تضع فوقه البطاطين والأغطية وأسرعت تخبر أمها التي كانت تود لو تتركه ليموت بدلًا من أن تحضر له الطبيب ولكنّ الفتاة من خطت تلك الخطوة، أجرت اتصالًا بجارهم الطبيب ليحضر على الفور وأصرّت أن ترافقه في مرضه حتى يُشفى، فجلست جواره أكثر من ليلتين أو ثلاث ليالٍ وهي تبيت على كرسي خشبي يؤلم الظهر تتكئ على ساعدها لتجعل منه وسادة لرأسها في حين ما بين الساعة والأخرى تقفز تطمئن على صحته وتوقظه لتعطيه الدواء، ثمّ يعاود النوم، ظلّ الحال كذلك إلى الليلة الثالثة والتي كانت فيها سعاد تختلي بحالها في غرفتها مطفأة الأنوار إلا أنه كان بصيص نور عجيب يظهر في الغرفة، ثمّ يضمحل، كانت تردد كلمات بصوتٍ خافتٍ، ثمّ بنبرةٍ عاليةٍ تشق القلب من الرعدة حسست سناء الابنة الكبرى لسعاد الأرض بأطراف أصابعها تترقب ما تفعله أمها وما إن اقتربت لتمسك بمقبض الباب انتفضت وصرخت وكأن أصاب كفها ماس كهربائي؛ فعلمت أنه عقاب من أمها لتلصّصها عليها، فذهبت ولم تعد تخرج من غرفتها، كانت غرفة سعاد معبّأة بأصوات تتداخل مع بعضها وهي تردد خلفهم:

ـ سمعًا وطاعة سيدي إبليس.

كانت تردد بعض الطلاسم العجيبة وكأن هناك آلاف الضيوف بغرفتها وفجأة انقطع الصوت وخرجت سعاد في هيئة تُميت من يراها رعبًا شعرها متناثر عيناها جاحظة كفيها يقطر منهما الدم وصدرها به علامات وكأنها نتيجة حرق، تسير بخطىً رشيقة كأنها تطير تترقب الردهة لم ترَ أحدًا سارت نحو غرفة حامد ممسكة في يدها بزجاجة صغيرة بها سائل أسود دلفت إلى الحجرة، حدّقت، الاثنان كانا في نومٍ عميقٍ، أمسكت بعلبة الدواء وأفرغت الزجاجة ذات السائل الأسود بها حتى امتلأت وأغلقتها وخرجت من المكان ويدها على المقبض لتغلق الباب، شعرت إخلاص بوخز في جسدها أفاقت تنظر في ساعتها إنه موعد الدواء فأيقظت حامد لتمنحه إياه وملأت الملعقة على آخرها وفجأة كان صوت الصراخ يعمّ المكان.

****

الفصل الرابع عشر
حلم أم كابوس

خبر يملأ شاشات التلفاز ويتصدر قنواته الفضائية يعلن عن محاولة جماعة من اللصوص التسلل إلى مقابر البر الغربي، وذلك بهدف سرقتها حيث أن في الآونة الأخيرة ذِيع صيطها أنّ بها كنوزًا ومجوهرات ثمينة تعود في الأصل إلى أصحاب تلك الأسر الفرعونية العريقة، وأفاد الخبر عن فشلهم إذ واجهتهم قوة خفية مجهولة المصدر، مما جعل الشائعات تنتشر هنا وهناك عن لعنة الفراعنة، ولكن يقول العالم والباحث العلمي في علم الأرواح أنه قد ظهرت بعض الأرواح الغاضبة لتنتقم حفاظًا على أصحاب المكان ومما لا شكّ فيه أن هذا الحدث قد أثار الجدل، وذلك قد استدعى تكثيف مجهودات وزارة الآثار بالتعاون مع وزارة الداخلية لتأمين المنطقة.

كان هذا البيان المذاع من التلفاز في منزل السيدة سعاد فهيم، والذي جعل القلق يتناثر على ملامح عماد ليثير الضوضاء منزعجًا:

أرأيتم؟ ألم أقل لكم أن تلك تعاويذ سحرية قد تمسنا بالسوء؟ وتطيح بنا جميعًا؟

تبادله إخلاص النظرات في غضب وتستشهد الكلمات على شفتيها في تهكم:

ـ ألا زلت تتكلم وكأنك أحد الورثة؟ ألم أخبرك أنك فقط زوج ابنتها ولست ابنها؟ ألم أخبرك أنك لست من أفراد العائلة؟ ألا تحفظ ما ألقنك إياه؟

يتفرس في وجهها ببغضٍ، ثمّ يحيد بعينيه بعيدًا ليقترب منه فوزي ويسحب الأخير من معصمه تعلو وجهه ابتسامة:

ـ تعال معي يا رفيق نتنزهه قليلًا يبدو أن أعصابك تحتاج إلى الراحة.

فسار معه عماد كالطفل المنجذب نحو أمه وقد وعدته بلعبة جديدة يحدقه بعيني الحيرة فاغرًا فمه مستسلمًا لعرضه أن يتجولا قليلًا بالحديقة، في حين أشار فوزي لزوجته:

ـ حينما تنتهين من الطعام أرجو أن تهاتفيني.

وانصرف وهو يلوح لها نحو أذنه في إشارة منه لسناء ولم يلمح أعينهم أحدٌ، حيث مضى عماد متقدمًا ينتظره بالخارج وتبعه فوزي بعد دقائق، وأما عن إخلاص فذهبت إلى غرفتها لتنفرد بنفسها بعض الوقت.

أثناء ذلك لا زالت أحلام بغرفتها مستلقاة على فراشها مستغرقة في النوم تحتضن الدمية الهدية مختبئة بها، تنحدر دمعة من جفنها المغمض تتدلى على وجنتها يبدو أنها تحلم إذ رأت نفسها تطأ بقدميها أرضًا تبدو مثل الغابة يتفرع منها طريقٌ منحنٍ؛ فاتجهت إليه وسارت تتلفت يمينًا ويسارًا لا تعلم إلى أين ستذهب، وعلى مداد بصرها هناك صندوق ضخم من الذهب في مطاف الدرب اقتربت رويدًا تتقدم نحوه وما أن خطت بالقرب منه فاجأها نبات ينبثق من الأرض تتضخم أوراقه وتتفحل، يخرج من سيقان متوحشة كالأذرع المغطاة بالشوك يهاجمها بشراسة فانكفأت على ظهرها وهي تصرخ وعلى وجهها الهلع تحبو محاولة أن تبتعد، وإذ فجأة يأتيها من الخلف أفعوان ضخم فكه كإنسان يهم أن يبتلعها، يفتح ثغره لتبرز أنيابه الضخمة ليبث في وجهها سمه المخلوط بدم فتصرخ أحلام صرخة تقتلع

القلوب وتصحو من غفلتها ترتعد وتبكي بكاءً حارًا، ثمّ تقفز من فراشها وهي مفككة الأعصاب منسابة تحاول أن تخرج من الحجرة لتجد أنّ الباب موصد بالمفتاح، تطرق الباب بكل قوتها تبكي وتبكي: أمي افتحي!.. من أغلق الباب؟ أرجوكِ افتحي لا أقوى على ذلك أرجوكِ!

تبكي ويزيد بكاؤها الذي أصبح صراخًا وتنهار قواها لتسقط مغشيًّا عليها، في تلك الأثناء كانت سناء في الطابق الأرضي بالمطبخ تعد الغداء ومنشغلة تمامًا، وأما إخلاص فهي أخذت دواءً مهدئًا وغفت في نومٍ عميقٍ وظلت الفتاة مغشيًّا عليها إلى أن اقترب مازن أخوها ومعه أولاد خالته من غرفتها وهم يتحدثون عن إحدى الرسومات التي كان يحتفظ بها مازن في أحد أدراج مكتبها:

الآن سترون أنني لم أكذب عليكما إنها كانت مجرد صورة بالتلفاز ولكني صممتها بإتقان أخبرتني أحلام بذلك لذا طلبت مني أن تحفظها بمكتبها لكيلا تتمزق أو تُلقى بالقمامة عن طريق الخطأ.

أحد الفتية الصغار:

ـ إذًا هيا أرِنا أين هي؟

اقتربوا يطرقون بأكفهم الصغيرة الباب الخشبي للغرفة، ويديرون المقبض ولكن قطّبوا وجوههم حين وجدوه موصدًا فانطلق أحدهم إلى والدته بالمطبخ يجذبها من ثيابها:

ـ أمي أمي غرفة أحلام موصدة افتحي لنا الغرفة نريد لوحة مازن.

بدا على وجهها علامات استنكارية وقطبت حاجبيها مندهشة، ثمّ أطلقت لقدميها العنان فصعدت الدرج مسرعة منجذبة من كف صغيرها تحاول أن تفتح الباب لتجده مغلقًا تسمرت قليلًا، ثمّ أيقنت أين ستجده أسرعت وأحضرته وفتحت الباب ولكن العجيب أنّها لم تجد بها أحلام لم تجد أحدًا بالغرفة لتدور تفتش عنها بالغرفة فلم تجدها.

أما عن عماد وفوزي اللذان انطلقا يتبادلان الحديث والنكات بالطريق يبرز فوزي السيجارة من علبته التي أخرجها للتوّ من جيب سرواله عازمًا على رفيقه وما من عماد إلا أن مد يده ساحبًا واحدة من العلبة شاكرًا إياه، يخرج فوزي الولاعة ليشعل لكل منهم سيجارته فينفث دخانها بين أصابعه وكأنه يزيح عن صدره متاعبه وأعباءه التي تعتليه وتحاوطه، سار الرفيقان على مسافة بعيدة من المنزل، ثمّ بادر فوزي بسؤاله:

لكن أخبرني يا رجل كيف لك أن تحتمل تلك المرأة؟

- أي إمرأة؟

- إخلاص، أجد أنك تتحامل على نفسك كثيرًا من أجلها رغم أنها تتعمد أن تهينك أمامنا ولا تستحي لوجودي أو تكترث لأحد.

يطأطئ عماد رأسه أرضًا ويتنحى بوجهه بعيدًا زافرًا من سيجارته التي أوشكت على الانتهاء ليلقيها أسفل قدميه ويدهسها:

- كل ما في الأمر أنني أقدر تلك الحالة التي وصلت إليها منذ موت أمها صارت عصبية وتتعمد أن تتحداني وكأنني من أمت أمها فقط أحتملها لأني أحبها.

ـ ولكن الحبّ يا عزيزي بلا تقدير واحترام يعد هراء.

- أعتقد أنك تبالغ.

- بل أنت الذي تمنحها فوق ما تستحق كن خشنًا وقاسيًا عليها لتدرك كيف تتفوه معك أمام الحضور وإن لزم الأمر أدّبها.

علت الدهشة وجه عماد ويبتلع ريقه في تعجب! يحملق في ملامح محدثه الذي بدا عليه بهجة غير مبررة، لم ينطق عماد ولكن شرد بأفكاره بعيدًا في حين استكمل فوزي حديثه متوقفًا وراكزًا بجذعه على إحدى الشجرات:

لماذا تسرعتما في تبني طفلة لا تمت إليكما بصلة؟ هل كان من الضروري وجود الأطفال في حياتكما إلى تلك الدرجة من التسرع؟

شحب وجه عماد، عيناه زائغة يترقب عينيّ محدثه، ثمّ علت وجهه ابتسامة مصطنعة:

ـ بلى، لكنني أحب الأطفال إنهم أحباب الله.

ضحك فوزي وكأنه استمع إلى نكتة:

ـ حقًّا أحباب الله ولكن إذا كانوا من صُلبك وليسوا للتبني!

كانت ملامح فوزي تثير الاندهاش لماذا يهتم بتلك التفاصيل، لماذا يتطرق إلى هذا الموضوع بعينه، كان صدر عماد يعلو ويهبط تتخلله تلك الأقاويل

والأسئلة المزعجة التي بثها في رأسه فوزي إلى أن احتدت الشمس بأشعتها تحبو فوق رأسيهما ليشعران بالإرهاق والظمأ فاقترح عماد أن يستريحا قليلًا في أحد الأركان المظللة، ولكن تبدل هذا الاقتراح عندما رنّ هاتف فوزي، أخرج الهاتف من جيبه:

ـ نعم... وهو كذلك (ثمّ أنهى المكالمة وأغلق الهاتف)

يبتسم في وجه عماد الذي كانت ملامحه تنم عن الاستياء:

ـ ما الأمر؟

- علينا العودة لقد انتهت من إعداد الغداء.

ـ جيد لأن أمعائي تتضور جوعًا.

يشير له فوزي بإصبعه علامة أنه تذكر شيئًا ما عليه إخباره:

ـ لقد نسيت أن أخبرك...

ـ ماذا؟

- أحلام

رفع عماد وجهه يحملق في فوزي ولم يجِب، ولكنْ عيناه الزائغتان كان يعتصرها القلق إلى أن أكمل الأخير:

ـ أحلام ليست بالبيت.

لا يعرف هل يسعد أم يحزن ولكن ما انتابه كان شعور أنه سار بخطىً سريعة جدًّا وكأنه يحلّق في الهواء طار نحو المنزل سبق مرافقه إلى أن وصل، ليصعد أكثر من درجتين أو ثلاثة بقفزة واحدة كالطفل الذي يتسابق مع

زويه فيجد نفسه أمام غرفة أحلام، يزاوله الفضول يقترب من الباب يدير المقبض سريعًا ويدلف الغرفة ليجد شيئًا غريبًا إنها أحلام ممددة فوق الفراش في نوم عميق.

****

الفصل الخامس عشر
أمرٌ مُحير

إن اتحدت قوى الشر ضدك وكان قلبك خاشعًا لله فلن تقوى عليك مهما حدث لن تستطيع الاقتراب منك، ولكن حينما تضع يدك في يد الشر فكيف لك أن تطلب عناية الله التي تنحيت عنها ووقفت في موقف عدائي فمن أين لك بالنجاة؟!

وقفت وفي يدها ملعقة مملوءة من الدواء ليرتشفها ذاك الممدد وقد أصابته الحمى يستند برأسه وإذ فجأة ترتعش يدها لتسقط الملعقة بها سائل أسود، إخلاص بدا عليها الاندهاش وانقبضت أنفاسها لترتسم تقاسيم وجهها التوتر في أعلى صورة، اقتربت من حامد ممسكة بمنديل جاهدت أن تزيل بقايا السائل المنسكب لسان حالها:

خيل لي أن ما به ليس بالدواء، ما حدث؟ وكيف تتساءل مع نفسها ولم تتلقَّ إجابة إلى أن قاطعها في استعياء:

- لا أعلم ولكن هلمِّي لي بملعقة أخرى.

تحول بنظراتها بين زجاجة الدواء ومحدثها المريض تجيبه بصوت أشبه بالهمس تتملكها الريبة:

ـ لا إنّ هذا السائل مخلوط بشيءٍ ما أشعر ببعض تلك الزجاجة وما بها،

تضع الزجاجة بعجالة على "الكومود" وهي غير منتبهة فتتهاوى بسرعة البرق وتسقط أرضًا وتتفتت إلى قطع متناثرة صانعة علامات تشبه بقع الدم في السجاد والأرضية، جاهدت أن تزيلها ولكن باءت محاولاتها بالفشل وإذ فجأة تملكها الخوف لتجد نفسها جالسة بالقرب منه وكأنها

تختبئ من شيءٍ ما، وجد نفسه يضمها في صدره دون أن يشعر ولا يدري كيف فعل ذلك، يربت على رأسها يهدهدها كطفلة صغيرة بين كفيّ أبيها:

اهدئي يا صغيرتي لا تكترثي إلى شيء ولا يخيفك شيء ما بقيت على الحياة، فنظرة واحدة من عينيكِ كفيلة أن تبُرئني من أمراض الدنيا.

أغمضت جفنيها لأقل من ثانية لم تُجب ولكن شعرت بطمأنينة في قربه وقد هدأت أنفاسها إلى أن أرجفتها صرخات انطلقت صادرة من غرفة الأم سعاد، جعلتها تقفز من بين يديه تاركة إياه متجهة إلى غرفة أمها وهي ترتعد سؤال قلبها أي مكروه حدث!

كان يتراءى صوته في أذنيها بعدما انطلقت من غرفته بنبرة مثقلة بالوهن:

ـ رجاءً عودي لتطمئنيني ما حدث.

لم تُجبه إذ بها قد ابتعدت عن مصدر الصوت لا زال قلبها يخفق بشدة، دلفت مسرعة إلى غرفة أمها، لتجد أعين الأخيرة محملقة تخرج وميضًا وحدقتيّ عينيها وبؤبؤها قد اختفيا بل صارتا بيضاء، فشهقت الفتاة وتراجعت للخلف ترتجف قدماها لا تقويان على حملها، اقتربت منها أمها وكفّاها نحو عنق الفتاة تكاد تخنقها، تراجعت الفتاة في ربكة لتنكفئ على ظهرها وتسقط وحدثتها أمها بحديث عنيف كان يخرج بنبرة غليظة صوت أجش لم يكن صوتها حاولت الفتاة الفرار منها أو تتنفس الصعداء لتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وما إن التقطت أنفاسها هاجمتها أمها مرة أخرى بلا شفقة:

ـ أنتِ التي أفسدتِ كل شيء كان عليكِ أن تتركيه، أفسدتِ كل شيء كان لا بدّ أن يموت.

تذرف الدمعات من مقلتيها وهي تترجى من تحدثها وبدا عليها الفزع:

ـ لم أفعل شيئًا صدقيني لم أفعل شيئًا.

- بلى فعلتِ، سكبتِ الزجاجة التي تعبتُ لأجعل منها أقوى وأسرع سم ليسري في جسده ويخترق قلبه، كانت تركيبة نادرة لولا أنتِ من أفسدتِ عليّ خطتي يا ملعونة، لماذا كسرتِها؟

ـ صدقيني لم أفعل يا سناء الحقيني أرجوكِ.

لا زالت تبكي وتصرخ وتصيح على أختها سناء لتخلصها فجاءت على صوت صياحها وفي يدها ورقة مطوية إنها سورة يسّ، ظلت ترددها بصوت مرتفع يتردد في الأجواء، كانت نبراتها عالية قوية ذات ثقة، كانت تدور حول رأس أمها تقرأ القرآن لتصرخ صرخة مرعبة وسقطت مغشيًا عليها، فتمكنت إخلاص من التملص منها أخيرًا، جرت نحو غرفتها وهي تبكي تنهمر الدمعات من مقلتيها كشلال حزين، ظلت تبكي ولكن بعد قليل جاءها أحدهم طرق الباب، ثمّ إذ لم يجِئه رد فدلف إلى الداخل وأغلق الباب خلفه كان لا زال يسعل ويبدو عليه الإرهاق إذ به حامد عيناه زائغة لم يُشفَ بعد، اقترب بأصابعه لأقرب مكبس للإنارة لتتضح له معالم الغرفة وتلك المرتمية في أحضان الوسائد تحاوطها الدمعات، جلس على طرف السرير ومد يده ليربت على شعرها، فما إن شعرت بيد انتفض جسدها واستيقظت

وحين رأته ارتمت بين يديه تبكي مجددًا، شعر داخله أنه في أمس الحاجة أن يحاوطها بذراعيه ليخفف آلامها، اعتدل في مجلسه جاهدًا أن يتمالك رغم شعوره بالإعياء ولكن برفق ضمها إلى صدره واقترب يتنفس خصلات شعرها التي يفوح منها عطر الياسمين نفس العطر الذي كانت تضعه أمه – رحمها الله– شعر بقشعريرة تسري في جسده ليضمها أكثر وأكثر لم يذق الخمر من قبل ولكنها المرة الأولى له في الثمالة من شفتيها.

كان الطقس بالخارج شديد البرودة يهطل المطر ورائحة الأجواء تثلج الأنوف ارتطمت درفة النافذة لتجعل العاشقين يستفيقان سريعًا وحينها أفاقت إخلاص لتشعر بالخجل يكتسي وجهها لتتلعثم في الكلام طالبة منه المغادرة:

ـ أرجوك عليك الانصراف.

كانت شفتاه صامتة تراقب شفتيها تراقب نفضة الخجل النابضة بين وجنتيها تراقب طفولتها وبراءتها نهض من جلسته واتجه إلى نحو الباب كانت هي جواره تحثه على المغادرة والإسراع خوفًا من أمها خوفًا من أن يفتضح أمرها، كانت يده فوق المقبض وهي جواره وقبلما أن يذهب قال لها هامسًا:

ـ أحبّك.

واقترب يسرق كأسًا آخر من شفتيها ليروي قليلًا من ظمئه، ثمّ غادر الغرفة.

مر اليوم والتزم كلاهما حجرته في انفراد وخلدا إلى النوم بعد مرور ساعات مضت في التفكير فيما حدث بينهما، ومر يومان وخلفهما بضعة أيام إلى أن تحسنت صحة حامد حتى عادت له عافيته من جديد ليعود إلى جامعته ومرت الأيام في هدوء وكلٌّ منهما يتحاشى الآخر إلى أن مرت امتحانات نهاية العام، وعاد حامد في هذا اليوم بابتسامته المشرقة وروحه الودودة طرق غرفة إخلاص وطلب منها أن يتحدث معها قليلًا في أمر هام، فجأة جاء ردها وهي واقفة لتمنعه من المرور:

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟!

كانت تتحاشى النظر إلى عينيه خوفًا أن يتملكها الضعف، ولذة المثول بين يديه الحانية محاولة الهروب منه بقدر المستطاع ولكنه ترجاها إنه حقًّا يريد إخبارها بأمر هام فسمحت له أخيرًا بالدخول إلى غرفتها وكانت تنصت له وهي تقف بالشرفة ومولية له ظهرها، كان يتهجأ الكلمات كأنه طفل يبتدئ تعلم الكلام:

ـ تعرفين أننا أولاد خالة، وتعرفين أنني بالسنة النهائية بالجامعة، كانت لا تلتفت له ولكن تومئ برأسها وتشير له بيدها ليكمل، ثمّ إذ به يفاجئها ويحتضنها وهي لا تراه ليهمس لها في أذنها مستكملًا حديثه: وتعرفين أنني أحبك.

انتزعت نفسها من بين يديه وبدا عليها الارتياب، قاطبة حاجبيها:

ـ أعرف كل ذلك ولكن ماذا تريد إذًا؟

قال باسمًا:

ـ أريد الزواج منكِ.

فكانت ردة فعلها غير متوقعة عصبية وانفعال، ولا زال الأخير محتفظًا بهدوئه يراقبها حتى في صمتها.

- إنك جُننت هل لك أن تتصور أن خالتك ستوافق؟

ـ ولمَ لا؟

جاء رده مربكًا لها فهو لا يعلم عن نوايا خالته التي تتصنع المودة أمامه وهي تريد إيذاءه:

ـ أجيبيني ما الأمر؟ لماذا كل تلك الثورة؟ خالتي تحبني أليس كذلك؟!

لم تُجب تحسبًا أخفضت وجهها المتعرق أرضًا تراقب عينيه في حيرة:

ـ ماذا تفعل خالتك لن توافق صدقني أنت لا تعلم شيئًا.

- إذًا أخبريني أنتِ ما الأمر؟

ـ فلنصبر عامًا أو عامين.

- أي صبرٍ لي؟ وأنا أشتاق إليك، فاللحظة ألف عام!

ـ إذًا نتزوج زواجًا عرفيًّا.

علت وجهه الدهشة لا يدري أيوافق على الانتظار غير المبرر أم على الزواج غير المعلن أم على الشوق الجارف اللاواعي!!

الفصل السادس عشر
إشارة البدء

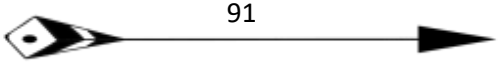

دقت عقارب الساعة تمام الواحدة بعد منتصف الليل لدغته ليستفيق أخيرًا من ذكرياته المكبّل بها عقله ليعود مرة أخرى لحاضره نافضًا عن رأسه غبار الماضي، يتصل هاتفيًّا بأحد رجاله:

ـ ما العمل؟ كيف لنا سنخترق تلك المقبرة اللعينة بدون خريطة؟ وكيف سنبقى على قيد الحياة إذا أتممنا السعي وراء أهدافنا دون أذى؟

على الطرف الآخر يتحدث شخصٌ بثبات ونبرات تحمل الثقة:

ـ سأخبرك شيئًا يسعدك جدًّا افتح الحاسوب الخاص بك أدر الكاميرا اضغط على الزر الأحمر الملاصق للحاسوب ستجد مفاجأة.

كان ينصت له حامد بكل إصغاء وتركيز وأخبره أن ينتظر معه على الهاتف ليفعل ما قاله للتوّ متوجهًا إلى غرفته ومخرجًا الحاسوب من حقيبته الخاصة، وللحال أدار الكاميرا وفعل كما أخبره تمامًا جلس أمام الحاسوب على الفراش وملقيًّا الهاتف جانبًا وحينما ضغط على الزر الأحمر أضاءت الشاشة ليظهر أمامه منزلًا بكل جوانبه هناك على اليسار فتاة صغيرة تحمل شيئًا ما، يا للهول إنه منزل السيدة سعاد وها هي أحلام تلك الفتاة إنها تحمل الدمية العجيبة التي أهدتها لها أمها دون أن تعلم من الذي ألقى بها أمام باب منزلهم، الدمية بها عدسات تنبثق في حدقتيّ عينيها تصور المكان بصورة ثلاثية الأبعاد، ها هو حامد يبتسم بل يصفق صفقة المنتصر بكفيه تتهلل أساريره وإذ جذب انتباه مسامعه صوتًا ما آتيًا من الهاتف الملقى جواره، أمسك الهاتف والابتسامة تتصدر وجهه:

ـ عبقري أنت عبقري أنا قد حالفني الحظ حين اخترتك من بين المئات من ضباط الأمن التابعين لإحدى أكبر شركات الحراسة والأمن، تستحق المكافأة يا رجل اطلب ما تريد.

الآخر:

ـ يكفيني رضاؤك سيدي ولكن دعني أخبرك عما توصلت إليه مؤخرًا في علم التنقيب عن الآثار في المقابر الفرعونية.

- هلمّ سريعًا وأخبرني كلي آذان يا رجُل.

استمرت المكالمة قرابة الساعة في حديث واستفسار بينهما إلى أن انتهت وتنفس حامد الصعداء وأغلق الهاتف وحدّق قليلًا في الشاشة متسائلًا نفسه: ابنة من تلك الفتاة؟

ثمّ إذ بإخلاص تظهر على الشاشة لتجعل قلبه يخفق مبتسمًا بسخرية وإذ فجأة تنادي إخلاص على أحلام فتجيبها الفتاة:

ـ حالًا يا أمي أمهليني بضعة وقت وسأوافيكي بما طلبتِه مني.

تراجع قليلًا وهو عاقد حاجبيه وعينيه زائغة بغضب:

ـ ابنة إخلاص! حقًّا تنعمين بحياتك يا ماكرة وكأن شيئًا لم يكن، تزوجتِ وأنجبتِ يا ويلك مني يا امراة.

كان لا زال يحدّث نفسه إلى أن أدار برنامج المراقبة على وضع التسجيل لكيلا يفوته شيء حينما يغادر واستعد للخروج قاصدًا شخصًا ما سيحقق مناله حتمًا كما أخبره مساعده مؤخرًا.

هناك خلف جدران ذلك المنزل العتيق الذي تغلفه الأتربة وتغلف قلوب من تسكنه كانت تقف سناء تهمس في أذن شقيقتها وهي تتلفت يمينًا ويسارًا لتتأكد ألا أحد يراقبها:

ـ لا أعلم كيف تحتملين زوجك هذا؟ إنه فظ للغاية.

أطلقت إخلاص ضحكة هادئة واحتبستها ضمن فكّيها لكيلا تصدر صوتًا:

ـ أشعر أنك تبغضيه أليس كذلك؟

أومأت لها الأخرى بالإيجاب فجاء رد إخلاص:

ـ عماد كان ضمن اختيارت أمّنا أو بالأصح ضمن قيودها التي سلسلت بها عنقي.

حدقت بها سناء بنظرة ريبة من حديثها جاهدت أن تستفسر عما في خُلد شقيقتها، ولكن لَفَحها الصمت فعادت لحديثها الأول:

ـ لماذا تتمسكين برجل كهذا أشعر إنه أناني ولا يحب إلا نفسه.

- أعلم وأحيانًا أجد أنكِ مُحقة ولكن أحيانًا خلف كل ثور تكمن نفسًا ضعيفة كالأطفال، أشعر أن عماد يفتقر إلى طفولته لذلك أحاول أن أحتويه.

التقت نظراتهما لومضة لا تتعدى الثانية، ثمّ لاذت كلاهما بالصمت إلى أن قطع صمتهما صوتٌ أجش:

ـ ألم تنتهيا من إعداد الطعام؟ معدتي تتصارع تتمزق جوعًا.

حينما انتهى من جملته كانت قدماه قادته إلى المطبخ لتجعلهما تصابا بالارتباك وأسرعتا في الانتهاء من الطهي، وفي غضون الساعة كان الجميع مجتمعًا على مائدة السفرة لتناول الطعام كان عماد يجذب نحوه الدجاجة المطهوة يمزقها في نهمٍ شديدٍ، يراقبونه في صمتٍ ويتهامزون فيما بينهم، وأما عن عماد فما كان يهتم وعينيه منصبة في التهام الطعام إلى أن قاطعهم وهو عاقد حاجبيه ونبراته تتخذ مأخذ الجد:

ـ لقد قررت أن الليلة ستكون إشارة البدء.

فغروا أفواههم يحدقون لبعضهم البعض نافضين عن أيديهم الملاعق والطعام ثمّ إذ به يشخص لهم ويعود ينغمس في الطعام مستقطبًا حديثه:

الليلة سنغادر لننقب عن الكنز من يحب أن يأتي معنا فمرحبًا به وأما من لا يحبذ فلينتظر عودتنا سالمين بأمر الله.

على صوت حديثهم الجانبي الأشبه بالهمس إلى أن وصل لمسامعه:

ـ ماذا تقصد بمعنا؟ معك أنت ومن؟

كان ذلك سؤال إخلاص فبادلها نفس نظراتها الاستنكارية بلامبالاة وعدم اكتراث وهو يحشو فمه بالطعام وتوقف قليلًا ليمضغ ليفاجئها بالرد:

ـ أنا وأحلام.

ليشهق الجميع في آنٍ واحدٍ وأما عن إخلاص شعرت برجفة تسري في جسدها لم تسترح لنظراته لها وعندما حاولت أن تعترض ما عزم عليه

قطّب وجهه زائرًا كأسد يجول باحثًا عمن يلتهمه فأغلقت فمها متمتمة ببعض الكلمات بصوت لا يكاد يُسمع.

أما عن أحلام بعدما انتهوا من العشاء ومكثوا جميعهم في غرفهم توجهت إلى الباب الرئيسيّ وأدارت مقبضه لتطلق لقديمها العنان متوجهة إلى المقابر كانت تجري كأنها تحلق في السماء بين السحب تصارع الوقت وتصارع الليل قبل بزوغ الفجر كما حدد والدها ساعة الانطلاق، وصلت إلى مقبرة جدتها جثت على قدميها تلهث من طيلة الطريق كانت تحمل بين ثيابها ورقة مطوية وقفت تتمتم ببعض التعاويذ بحق الألف والنون وكلمة كن فيكون وظلت تردد عدة كلمات مبهمة وفجأة تصاعدت أبخرة شديدة تحجب الرؤية وانشق الحجر الملقى فوق القبر الماثلة أمامه لتحضر روح الجدة ولكن أثناء ما كان يدور من حديث بين الفتاة والجدة كانت هناك خلف القبور وعلى بُعد عدة مترات أعين تنبثق تراقب ما يدور.

****

الفصل السابع عشر
وضع استعداد

وفي قرة عين الليل يخالطه رائحة الموت المنبعثة من كل مكان، كان هو يطل برأسه يراقب ولكن لا يجرؤ على الحراك عيناه تشتعلان بالغضب لم يصدق ما رآه بأم عينه إذ بها الجدة أم زوجته وها هي ابنته التي صار يبغضها مؤخرًا ويشعر تجاهها بالنفور، طرقت الرّوح بكفها فوق القبر ليصدر عن تلك الطرقة زلزلة جعلت بعض الحجارة المتصدعة على جانبي المقابر تنحدر وتندفع لتتجهه اتجاهًا عكسيًّا من دون علم منه لتجعله يشهق عاليًا:

ـ آه ما هذا؟ يا ويلي.

فاختفت الرّوح بمجرد سماعها صوته، ولكن فجأة ظهرت مرة أخرى بجوار جثمانه الممدد أرضًا منبطح الرأس إذ أن الحجارة جاءته من الخلف ليقفز عاليًا، ثمّ يهوي بقوة منبطحًا برأسه على حجر صغير كاد يقضي عليه جثت الرّوح قرابة منه واضعة يديها حول عنقه صارخة فيه:

ـ ماذا جاء بك إلى هنا أيها الملعون؟ أتظن أنك ستحقق منالك؟ وتستولي على إرثي وإرث أجدادي؟ إنك تحلم يا أرعن.

وأطلقت ضحكة مخيفة جعلته ينتفض متناسيًا ما حدث له منذ برهة مشيرًا لها بيده نافيًا وتراجع للخلف وكفه تتحسس موضع الألم برأسه الذي ينزف، ثمّ اختفت الرّوح مرة أخرى لتجعله يتلفت حوله يمينًا ويسارًا في ذهول ورجفة إلى أن اقتربت منه أحلام بوجهها الشاحب تربت على ظهره:

ـ أبي سلمك الله أهل أصابك مكروه؟

فانتفض وكشّر عن وجهه وأزاح يدها عندما أدرك أنها أحلام:

ـ ماذا جاء بكِ إلى هنا؟ ومن أين جاءت تلك الرّوح؟ أتعتقدين أنكِ ستجعليني أخضع لهذا الهراء؟

جذبها من معصمها نحوه وأخفض رأسه يحدثها في همس:

ـ اعلمي جيدًا أنني لن أدعكِ تتمتعين بالكنز وحدك أفهمتِ؟

وكان يكزّ على أسنانه والفتاة تحاول أن تتملص من يده، باتت يدها تؤلمها تومئ:

ـ حاضر يا أبي صدقني يا أبي إنني أحبك أنت وأمي من قلبي ولا يعنيني هذا الكنز بمجمله ليت أموال الكون جميعها تذهب وتعود تحبني كما كنت،

اخترقت كلماتها قلبه ومسامعه ولكن باتت أفكاره صلبة لا يذيبها شيء، رمقها بنظرةٍ حادةٍ وسار ينفض ثيابه مما علق بها حينما سقط وأشار لها لتقترب وتتبعه:

ـ هيّا تقدمي بجواري علينا الرحيل الآن أهل معك الخريطة؟

أبرزتها أمامه لتؤكد له وجودها معها، وهما لا زالا في طريقهما للبيت أثناء ذلك رنّ الهاتف كانت بقربه إخلاص رفعت السماعة تجيب:

ـ ألو ...ألوو.

صمت، ثمّ جاءها صوت المتحدث:

ـ كيف حالك؟

تجيب في برود:

ـ الحمدلله من أنت؟

ـ لا زال صوتك رقيقًا كما اعتدته ولكن كل شيء قد تبدل.

اتضح صوته في أذنها لتستنبط من يهاتفها، احمرّ وجهها وخفق قلبها تبتلع ريقها وتهمس:

ـ أنت؟ ماذا تريد؟ ألا تعلم أنني الآن متزوجة من غيرك؟

علت ضحكاته بنبرة مُرة كالمخمور بخمر الخيبة:

ـ أعلم ما تقولين وأعلم أنكِ الآن زوجة وأم ولكن تعلمين أنكِ كنت نعم كنتِ فعلًا للماضي لأنكِ عالقة في الذكرى فقط وليس في قلبي كنتِ حبيبتي وزوجتي ولا داعي لكل هذا الخرق.

تنصت له وتتدفق دمعاتها تلو بعضها تنساب لتمحيها بكفها محاولة إخفاء صوت نحبها:

ـ إذًا ماذا تريد بما أنك تعي أنه لا داعي لكل هذا؟

مرت ذكريات مريرة أمام عينيه في سرعة البرق لتجعله غاضبًا يتفوّه بالتهديد والوعيد:

ـ فقط أخبرك يا إخلاص أنكِ لن تنعمي بحياتك باقي أيام عمرك إذا كُتِبَ لك عُمر ستذوقين مرار الندم.

ثمّ أغلق السماعة ليجعلها ترتجف، وضعت السماعة لا زالت تنتحب، كانا قد وصلا كل من عماد وأحلام أمام الباب دق دقة واحدة فنهضت مسرعة تستقبلهما محاولة إخفاء دموعها، رمقها عماد عاقدًا حاجبيه:

ـ ماذا بكِ؟

تخفي ما بها وتتوارى من أمامه:

ـ لا شيء.

رفع حاجبيه في اندهاش:

ـ لا تريدين إخباري؟ إذًا فاجهزي؛ لأن الوقت حان أن نمضي قبل الصباح أن يشرق فأعين الحراسة وأمن المقابر في كل مكان أعتقد أنهم ليلًا من السهل السيطرة عليهم، لقد أعددت خطة للدخول من الممكن أن تشغلي أنتِ الحرس أو أحدهم، ثمّ ما من أحلام تختبئ خلف أحد الأعمدة وفي يدها هذه الزجاجة تنتظر مني الإشارة لتدنو وتفعل ما سأخبرها به وأنا سيكون معي هذا السلاح لقد اشتريته منذ يومين.

برقت عينا إخلاص حين وقعت على ما يخبئه بين طيات ملابسه، فذهبت إخلاص تخبر شقيقتها وزوجها ولكن تذكرت من سيجلس مع الأطفال في غيابهم؛ فحين طرحت ما يدور في ذهنها جاءها رده على مضض:

ـ تجلس أختك وإذا أردتِ فلتجلسي أنتِ أيضًا.

ألجمها ما قاله للتو فصاحت بغضب:

ـ لن أترك إرث أمي وأجلس بين الجدران ولا أدري ما ستفعل.

مر بجوارها وهو يرمقها وينفث سيجاره في وجهها، ثمّ دفعها في كتفها باستياء سابًا إياها:

ـ إنكِ لامرأة مخبولة ينبغي لكِ أن تشكريني بدلًا من صياحك هذا إنكِ مختلة.

فعلقت في ذراعه مفتعلة معه شجارًا من جديد وعلى صوتها كضجيج رياح إلا أنه اقترب من أنفاسها يزاحمها وأصابعه منغمسة في شعرها بقوة:

ـ أنصتي لي جيدًا أقولها لكِ للمرة الأخيرة إذا توهمتِ نفسك شيئًا بدوني وعلا صوتك فأعدك لن تتفوهي بعدها أتعلمين لماذا؟

كان حاصدًا شعرها بين أصابعه ويزيد الضغط كاد يمزقه وهي تنتفض بين يديه.

تومئ بالرفض

ـ لأنني حينها سأفصل عنقك من موضعها.

تركها نافضًا يمينه عنها دافعًا إياها بقوة كادت تنكفئ:

ـ أخبري فوزي أنني في انتظاره وإن أردتِ المجيء فلتأتي بكماء خرساء أسمعتِ!

ذهبت إلى غرفتها تتمزق من الألم لا تعي ما هذا الكابوس الذي تحياه غسلت وجهها وأخبرت فوزي بما قاله ليستعد وأما أحلام فلا زال وجهها شاحبًا، وقفت تصلي ركعتين لله واستعاذت به من الشيطان الرجيم داعية إياه أن ينصرها وأن يقدرها على فعل ما يرضيه، كان يهاجسها شعور أن

والدها يضمر لها كراهية من نوع خاص كراهية وبغض يصاحبه ازدراء وكأنه أتى بها من بين أرباب الشوارع كلما خفق قلبها كانت تردد آيات الذكر لتهتدي.

تهيّأ فوزي ونزل الدرج بينما كانت تهمس له سناء في أذنه بحديث خافت:

ـ اتخذ حرصك منه يا فوزي فمن مثل هذا الرجل لا أحد يقدر عليه وقت غضبه وجنونه.

ابتسم فوزي ابتسامة ماكرة:

ـ لا تشغلي بالًا يا حبيبتي أعلم كيف أتعامل مع أمثاله لا تقلقي.

في هذه الأثناء كانت إخلاص أعدت حقيبة بها زجاجات ماء وبعض المعلبات وأدوات الإسعافات الأولية لتحملها معها ربما كان لها عودة وانطلقوا ثلاثتهم بصحبة فوزي خارجين من البيت قاصدين السفر إلى البر الغربي تاركين سناء لترعى الصغار، بينما في تلك الأثناء كان حامد في بيت منجز المحامي الذي جاءه بعنوانه أحد رجاله يجلس منجز متكئًا على كرسي "الأنتريه" واضعًا قدمًا فوق الأخرى وينفث سيجارته بتفاخر بينما حامد يحاكيه ترتسم على وجهه علامات الغضب:

ـ ما هي طلباتك لتعطيني الخريطة؟

ـ وما علمي أن تلك هي نسخة طبق الأصل من خريطة الكنز وليست مزيفة أو تفاصيلها خاطئة؟

ضحك منجز:

ـ كنت أعلم أنك عاجلًا أم آجلًا ستأتيني بحثًا عنها، لذا فقمت بتصوير للخريطة الأصلية قبل أن أصل بها لورثة المرحومة.

بُهت حامد مما طرأ على مسامعه:

ـ كيف لك أن تعلم بمجيئي وأنت لا تعرفني؟ ولم أعلم طريقك قبل اليوم؟

ـ يا عزيزي لا تندهش فقد يحمل الحاوي بين جعبته الكثير ولا ترى منه إلا ما يريدك أن تراه.

بدا على حامد أنه لم يعِ ما قال فعاد عليه القول بصورة أخرى:

ـ تعلم أني محامي المرحومة ومخبأ أسرارها فهل يخفى عليّ أمر كهذا؟ لقد حدثتني عنك كثيرًا وكيف أنها ضبطتك في آخر لقاء جمعك بها حين كنت بين أحضان ابنتها إخلاص وطردتك شر طردة.

نهض حامد وقد ثار ثورة عارمة طارقًا بقبضته على الجدران المحاوطة وصوته ازداد غلظة:

ـ لا تقل مثل هذا القول ولا تذكرني أنها.. أنها كانت زوجتي نعم كانت كذلك.

بدأ صوته يختنق ودمعة أفلتت من عينه لتنحدر على وجنته قام وأكمل مستطردًا: قبل أن تعلم خالتي الملعونة بالأمر وتمزق عقد الزيجة بيننا وتطردني شر طردة لن أنسى محاولاتي المتكررة في استرضائها ومقابلتها ذلك بالتهديد والوعيد بطردي وفضيحتي في الكلية بين زملائي وأساتذتي، لن

أنسى استنكارها؛ لأني وهي على فراش الموت تكلب منها الملعونة وهي تنفض يدها كإخوة يوسف حين ألقوه في البئر وذهبوا ينعونه.

- دعنا من حقيبة الذكريات ليس لها مجال الآن تفضل هذا طلبك وأما أنا فلي نصف الكنز.

أبرز له النسخة المطابقة للخريطة فأخذها منه حامد وظل ينظر لها يتفحصها ويتذكر حين منحته أمه إياها يومًا ما قبل أن يضيعها وتسرقها خالته ولكن أفاق من شروده على كلمة نصف الكنز فضحك ضحكة باهتة:

ـ أضحكتني كثيرًا ولم أضحك منذ زمن بعيد يا رجل هذا ليس من حقك ولكن أعدك أنك سوف ترضى، يكفيك مائتا ألف جنيه.

فزمجر منجز وحملق في وجهه يكاد يختطف الورقة فعلم حامد ما يفكر فيه فخبأها في جيبه وابتسم:

ـ لا تغضب سأجعل المبلغ ثلاثمائة ألف، أظن هذا يكفي.

ابتسم منجز على مضض وصافحه قائلًا:

ـ اتفقنا ولكن ما الضامن لي؟

اتجه حامد نحو الباب مغادرًا وهو يلوح له:

ـ ليس هناك ضامن يا أنت فكلمتي سيف وغدًا ستدرك ذلك.

ثم عاد إلى بيته ولكن حين عاد تفاجأ بأمر ما إنه الحاسوب كان لا زال على وضع التسجيل حين أداره صعقته المفاجأة.

الفصل الثامن عشر
مخاطرة

الظلام يسود المكان هناك بعض نفحات الصقيع تداعب الأنوف يسيرون بخفة دون إحداث صوت بأقدامهم، على أعتاب المعبد هناك حارسان يتبادلان الحديث وينفثان دخان السجائر، كانوا يسيرون بخطى خفية في إثر بعضهم يتقدمهم أحلام التي وضعها أبيها في المقدمة؛ لأنه يقول أنها طفلة لن تصاب بمكروه لحداثة سنها تليها أمها، ثمّ عماد خلفهما ويليه فوزي الذي كادت أسنانه تصطك خوفًا من ظلمة المكان، توارى عماد جانبًا ودفع أحلام لتتجه ناحية الحارسين لتفتعل سؤالهما إذ بها كانت في رحلة وضلت الطريق ففعلت كما لقّنها عماد والباقون متوارون عن الأعين أشارت لأحدهم فانتفض واقفًا واقترب منها ليصغي لما تقول:

ـ وماذا جاء بكِ هنا يا صغيرة؟

تتلعثم الكلمات على لسانها وتحاول ضبط دورها:

ـ يمكن لك أن تصطحبني لخارج تلك المنطقة أود الوصول لأهلي لقد ضللت كما أخبرتك.

حدق بها الحارس بعين الريبة مناديًا زميله أن يأخذ احتياطه لحين أن يُخرج الفتاة على الشارع العمومي للطريق؛ فاستجاب له الآخر ناهضًا من مكانه لينتبه أكثر ذهابًا وإيابًا في حين ذهب الآخر مع الفتاة في طوع واستسلام ليُفاجأ في أثناء سيره بمن يباغته بضربة قوية فوق رأسه، إذ به عماد كان يتخفّى خلف أحد الأعمدة ضاربًا الأخير بمؤخرة السلاح

القابض عليه بين أنامله وما من الحارس إلا أن أصدر صرخة ووقع إثرها مغشيًّا عليه مما جعل أحلام تنتفض وتصرخ في وجه أبيها:

ـ أقتلته؟ لماذا قتلته؟ لماذا؟ لم يفعل شيئًا جزاء ذلك.

يبدو عليها الرجفة والهلع مما صدر من عماد في حين لم يعرها عماد أدنى أهمية مشيرًا لفوزي بأصابعه:

ـ هيا يا فوزي هلمّ سريعًا، تنحَّ به جانبًا بعيدًا عن الأعين.

فنفذ فوزي ما طُلب منه على السرعة دون أن يتفوهه بكلمة مشدوهًا يحملق في الرجل الملقى بين يديه جارًا إياه من أطراف بنطاله يسحبه جانبًا، في حين كانت إخلاص تقف صامتةً تحتضن ابنتها منتظرة ما يأمرها به عماد، فعادوا جميعهم متسربلين إثر بعضهم يسترقون النظر إلى البوابة فلا زال هناك عقبة، إنه الحارس الآخر فأشار عماد لزوجته بأن تبادر بالحديث إليه.

في أثناء ذلك كان حامد يجلس مشدوهًا بكل حواسه ناظرًا إلى الحاسوب مسترجعًا بما سجله البرنامج الذي قد أعده أحد رجاله فوجد عائلة إخلاص وهم يتأهبون للانطلاق ولكن في حين يسترجع الأحداث رأى إخلاص تجيب على الهاتف لا يتضح الصوت إذ أن الدمية كانت في زاوية بعيدة، رأى دمعاتها، ثم رأى ما حدث بينها وبين زوجها من مشادة وفي حين كان يخفق قلبه أخرسه عقله سريعًا ليغلق الحاسوب ويتصل هاتفيًّا بمساعديه أن يسبقونه على مكان البر الغربي ويكونوا دومًا على اتصال

ويأتوا ومعهم أكبر كم من السلاح والطلقات في حين بدّل ملابسه المنمقة التي هي بذلة كلاسيكية بثياب أسهل للحركة بنطال وقميص وصديري ليضع فيه سلاحه ويخفي في جيبه الطلقات وانطلق من الباب كالقذيفة، كل ما يشغل باله هو الكنز واضعًا كل المشاعر والأحاسيس الإنسانية موطئ قدميه.

في حين توارى الجميع عن الأعين حاولت إخلاص في تمثيل دورها فاندفعت نحو الحارس المتواجد بالمكان تلقي بنفسها نحوه باكية وصارخة مدعية أن ابنتها قد ضلت منذ قليل وكانت تتبع أثرها وتبكي خوفًا ألا تعثر عليها، ارتاب الحارس في أمرها ولم يزل واقفًا أمامها وفيما هي تتلفت يسارًا ويمينًا باحثة عمن حولها تفاجأت بالحارس يخرج من جيبه "الهوكي توكي" ليتصل بزميله الذي لم يأتِه منه جوابًا ليجعله قلقًا، ليشهر سلاحه في وجهها فتباغته هي ببخات زجاجة المخدر ليقع مغشيًّا عليه.

بعد قليل وصل حامد أمام البوابة الخارجية على الطريق العمومي لم يجد رجاله قد وصولوا بعد ظلّ يحاول الاتصال بهم فكان الرد يأتيه هذا الرقم غير متاح حاول الاتصال مرة أخرى ولأنه كان في مكان صحراويّ ونائٍ؛ توقع سقوط شبكة الاتصال فعاد يتصل مرات عديدة بلا جدوى فعزم على أن يبادر بالدخول بمفرده إلى أن يصل رجاله ويخترقون المكان، جثا عماد بالقرب من حارس الأمن الثاني ساحبًا منه سلاحه ملقيًا به لفوزي الذي ارتعد حين تلقفه فأخذه مترددًا،

ظلوا يسيرون والظلام يحاوطهم محاولين فتح كشافات الهواتف النقالة ولكن بدأت الإضاءة تخفت رويدًا رويدًا لم تكن كافية، أمامهم منحدر متصل بسرداب ضيق لا يوجد به فتحات تهوية يتحتم عليهم المرور رغم أنه لا يتسع إلا لمرور فرد واحد بالكاد، فحذرهم عماد على أن يسيروا على مهل يتحسسون الأرض، مرّ الجميع بسلام عدا فوزي الذي كلما ناداه عماد تلكع في السير خوفًا أن يصدمه شيء بجانب ضعف بصره، فكلما خطى خطوة تحسس الحائط وفيما هم يسيرون مر سريعًا ليلحق بهم فعلق قميصه في سيخ حديديّ فحاول أن ينزع نفسه بالقوة فاخترق لحمه ليجعله يتأوه آه مدوية في استغاثة:

ـ أين أنتم إنني عالق في شيءٍ ما أرجوكم عاودوا لتنقذوني، هناك شيء اخترق جسدي آه لا أستطيع الحراك أرجوكم ساعدوني.

قالت إخلاص وهي ترتجف:

ـ هلمّ لنعود له لو انتظر قليلًا في النفق ربما اختنق لضعف الأكسجين أو نفدت روحه مما أصابه.

فحدق بها عماد وأنفاسه تتصارع كالثور الهائج تود إطاحة كل من يعترضه بينما هي لا ترى ملامح وجهه إلا مشوشة ولكن تشعر بهزيز أنفاسه المتصاعدة، مد يده ليسحبها بعنف ليقبض على معصمها:

ـ من أراد أن يعود فليبقَ جواره وحذاري أن يتبعني، ألم أنبهك أن تأتي بكماء خرساء يا امرأة؟

ـ آه حاضر ولكن افرج عن معصمي كدت تقصف به.

فترك يدها أخيرًا وباتت تتلوى من شدة الألم ممسكة إياها بيدها الأخرى لتزيح عنها آثار أصابعه الحادة، تتلفت خلفها نحو صوت فوزي الذي كان لا زال يصرخ متأوهًا، وقفت أحلام تراقب الموقف وعيناها ترتجف تحدق أباها قالت له هامسة أن يتنحى جانبًا وكذلك أمها وقفت اثنتاهما بجوار حجر ضخم قد نقش عليه بعض المخطوطات الفرعونية التي تجهلا إلى ما تشير إليه، تقدمت أحلام من المقبرة وبمجرد أن خطت نحوها تزلزل المكان وارتجت أركانه فشعرت أن الصخور كادت تسقط فوقها وفوق رؤوس من معها فأشارت إليهم أن يتواروا جانبًا جاثيين أرضًا واضعين أيديهم فوق رؤوسهم خوفًا من هطول الحجارة، لا زال المكان يرتج بكل قوة وأمسكت أحلام بالخريطة وبدأت تتلو التعاويذ والطلاسم المدونة وتحدق في المقبرة وإذ تمت كلماتها فانشقت الجدران يسيل منها دماء في خطوط مائلة تجمعت وإذ بها كونت أفعوان ضخم اقترب منها تسمع صوت فحيحه وكأنه يلهث مما جعل عماد وإخلاص يختبئون وكادا أن يموتا رعبًا من هول ما رأوا، يتوارى كل منهم في الآخر اقترب منهم الأفعوان وأطلق إشارات ضوئية من عينيه نحوهما فأصابت قدم إخلاص لتطلق صرخة مدوية وتقفز فوقًا في حركات بهلوانية هيستيرية دون إدراك من هول الألم

وحين رآها عماد تراجع خوفًا حين اقترب منه الأفعوان، وفيما هو يتراجع بريبة وقع على ظهره وظل يتراجع زحفًا على ظهره إلى أن اقتربت أحلام

ووضعت قدمها على رأس الأفعوان فابتعد عنهما وراح يتبعها وهي تطلق عليه تعويذتها: نخ ...شنج ..ين ... بحق كن فيكون لا تؤذِهم أنا آمرك يا شنج.

يبدو أنه اسم ذلك الجني المتخفي في الأفعوان فأطلق بصوت أجش وأعين بيضاء صيحة عالية:

ـ اذهبي من هنا يا فتاة وإلا ستموتين، الزعيم يطلب ثلاث جماجم وإلا ستموتين أنتِ ومن معكِ.

شهقت أحلام لما يقول وارتعدت فمن أين تأتيه بثلاث جثث وثلاث جماجم لسان حالها:

يا ويلي منكِ يا جدتي كيف أوقعتني بهذا الجحيم؟ ملعون الإرث ومن يريده

ارتسم الأفعوان دائرة بها ثلاث جماجم ورسم نجمة سداسية تبدو هي علامة أعوان إبليس ورسم ساعة تبدو علامة الوقت أو المهلة، هكذا فسرت أحلام ما حدث ثم انشقت الجدران مرة أخرى وابتلعته، ولكن على مسمع من ثلاثتهم دبت خطوات أحد لم يكن مجيئه على البال.

الفصل التاسع عشر
الصاعقة

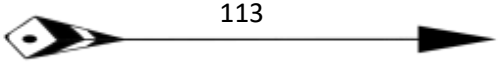

وقف ينظر إلى ساعته التي تعلن الخامسة فجرًا، يتنحى القمر ويتلاشى وتبدأ الشمس في فرض وجودها ونثر أشعتها البرتقالية لتبدد برودة الطقس في حين باءت محاولاته في الاتصال برجاله جميعها بالفشل أصر أن يتلفح ببسالته يتخطى بوابة المعبد الفرعوني يفتعل الشجاعة ونبضاته تعلن الخوف عينيه تتفحص المكان على ضوء كشاف هاتفه النقال فارهًا فمه يلتقط أنفاسه بصعوبة، إذ قد وصلت قدميه إلى ممر السرداب يفكك أزرار قميصه محاولًا التقاط أكبر كم من الهواء، وإذ به سائر في البداية وصل إلى مسامعه أنات أحد يتألم دب الخوف في أوصاله يبتلع ريقه عنوة أسرع في خطاه بلا إرادة لا يعرف ما السبب لا يعرف لماذا جاء في خاطره أن تكون إخلاص قد أصابها مكروه، أسرع بل لهث إلى أن اقترب من صاحب الصوت وصل يجاهد أن يرى ملامح وجهه ولكنه لم يرَ هذه الملامح من قبل فليس هو بزوج إخلاص إذًا من تكون؟

كان هذا سؤال حامد الذي أطلقه حين وصل إلى فوزي العالق في كتفه في سيخ حديديّ ينزف الدماء، بدأت أنفاسه في البطء لا يقوى على الحديث ولا الحراك يهذي بكلمات غير مفهومة نتيجة الألم، اقترب منه حامد يسترق السمع إلى دقات قلبه ليتأكد أنه لا زال على قيد الحياة، لسان حاله:

من أنت؟ أجبني أتسمعني؟ من أنت؟

يهز الأخير لسانه ثقيل يتلعثم في الكلمات يتأوه بصوت يتهدج:

آه كنت معهم وتركوني كنت أساندهم ولكن هذا ذنبي.

يراقبه حامد في هدوء يتحسس مكان الألم بأصابعه:

قد اخترق السيخ المدبب لحمك وعليّ أن أنتزعه بقوة وسرعة ولكن عليك أن تساعدني.

لم يأتِه جواب لا زال الأخير يخرف في نوبة ألم فما من حامد إلا أنه أمسكه من كتفيه بكل قوته وجذبه نحو صدره بقوة، فتحرر السيخ من قيد جسده ليطلق صرخة زلزلت المكان من قوتها لتصل إلى مسامع عماد الذي اضطرب وقال هامسًا بنبرة سخرية:

ـ هل مات فوزي؟ وداعًا يا عزيزي يبدو أنك علمت بنواياي فحاولت مساعدتي.

ثم أطلق ضحكة خبيثة ماكرة وعيناه تراقب المكان، وأما عن إخلاص فهي مستلقية أرضًا تتأوه من ساقها الذي عقره الأفعوان، أحلام تتمتم بصلوات وربما بكلمات تتورع بها إلى الله، هناك في نهاية الممر سقط فوزي مغشيًا عليه من الألم فجذبه حامد بعيدًا خارج الممر سحبه كخرقة باليه وأسند ظهره إلى الحائط، وأقام رأسه ثم نزع قميصه المرتدي إياه ليضمد كتف ذاك المصاب، يكتم فوهة الدم المتدفق ولكن فوزي يبدو عليه الوهن الشديد أخرج حامد زجاجة المياه من حقيبته ليروي ظمأ ذلك الأخير إلى أن ابتدأ يشعر بالحياة تدب في أوصاله يجاهد أن يتكلم:

ـ شكرًا لك لقد أنقذتني ولكن من أنت؟ هل جئت من أجل الكنز أنت أيضًا؟

أومأ له برأسه مؤيدًا ما يقول ثمّ عرف منه أن جميعهم ساروا على هذا النحو ليسرعوا ويحظوا بالكنز.

ـ رجاءً ابقَ هنا وليتك لا تحاول أن تتبعني حفاظًا على حياتك.

- لك كل الشكر ولكن الكنز ليس لي فقط أنا جئت نيابة عن زوجتي سناء وطفلي أظن من حقهما نصيب من الإرث.

ـ إذًا استرح أعدك أنني إذا حصلت عليه سأمنحك ما تريد ولكن فلتبقَ هنا.

تركه حامد واستعد للسير في منعطف المتحف ليعثر على ما يريد قبل الجميع

وعلى بعد أمتار تفصل بينه وبين ثلاثتهم هناك حواجز داخلية تجعله يصعب أن ينصت لما يقال مع خفض صوت حديثهم، اقترب عماد من أذن أحلام وعيناه تحدقاها:

ـ علينا أن نُعد ما طلبه الزعيم للفوز بالكنز عليكِ أن تساعديني.

ـ لا لن أسمح بقتل أحد، أفهمت يا أبي؟!

عيناها تبعثان الكلمات بصوت الثقة ولكن ما ترتسمه لا يعكس ما تبطنه في صدرها من خوف محقق إنها أمام رجل قد مات ضميره لا تعرف إلى أي شيء يصل به فكره الشيطاني، سحبها من شعرها يسحلها خلفه كشاة سيقت للذبح، عيناه تثير الخوف إبليس في صورة رجل، بصوته الأجش:

ليس لكِ حق الاعتراض يا فتاة الملاجئ أنتِ أيتها اللقيطة يكفيني تحملتك كثيرًا أنا من صرف عليكِ مرارًا حتى صرتِ لكِ عائلة وتحملين اسمي فعليكِ الآن رد الجميل وهذا الكنز حقي.

طعنتها كلماته لا تدري هل حقًّا إنها من أرباب الشوارع؟ هل حقًا استحضرها من الملجأ؟ أم أنه ينكر أبوته لها؟! الأفكار السوداء تتلاحق في سباق العدو في رأسها، تلاحقها الدمعات تهطل كالأمطار دون رجعة أصبحت ملامحها مزرية تثير الشفقة، جذبها خلفه متجهًا نحو الممر ولكن اكتشف أن هناك طريقًا مختصرًا للبوابة الأمامية، بخلاف السرداب الضيق محدثًا نفسه:

عزيزي فوزي لن أبدأ بك حقًّا فاعلم أنك عِشرة عُمر طالت ولكن عليك الاستعداد إلى حين أُبُاغتك بمفاجأتي هاهاهاها، يضحك ضحكات هزلية تنم عن المكر وأما عنها فلا زالت ترتجف تتبعه في صمت تومئ بالطاعة، الآن وصل كلاهما إلى الجنديين لا زالا مغشيًّا عليهما فاقترب عماد وبدم بارد وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويتفحص عينيّ أحلام أطلق الرصاص من مسدسه ذي الصوت المكتوم على أحدهم فتخرج منه آهات طويلة جعلت الآخر يبدأ يستفيق، همّ نحو زميله ولكن أسعفه عماد برصاصة أخرى ليلحق بزميله ممددًا بجواره، ترتجف أحلام تعض في أصابعها التي اتخذت شكل انقباض وتئن في صرخات فزع يرتسم الهلع على ملامحها:

ـ يكفي ذلك أرجوك أرجوك يكفي.

يضحك ويزجها أمامه لتسقط فوق جثة أحد الجنديين فيصطدم نظرها بعينيه الجاحظة تحدق في الفراغ لتزداد رعبًا وتتراجع زحفًا للوراء ملابسها لعقت تراب الأرضية يبدو عليها الازدراء، ترتجف ويرتج جسدها في رعشة أشبه بالحمى ولكن ليس لها من فرار، أشار لها عماد نحو الجثتين أن تعاونه بسحب أحدهما في حين يجر هو الأخرى ولا زالت تنتفض ويسيران عابرين الممر متوجهين نحو المقبرة، كان حامد قد وصل إلى المقبرة ليرى إخلاص تبكي ممسكة بقدمها المتعثر والمصاب بعقرة الثعبان والتي يبدو أنها لم تكن سامة بالقدر الكافي فقط تؤلمها ألمًا شديدًا، حامد يقترب منها جثا على ركبتيه وأمسك بقدمها وهو عاقد حاجبيه:

ـ ماذا بكِ؟

ـ لقد عقرني الأفعوان ولكن هذا لا يهم أرجوك أن تلحق بهذا المجرم قبل أن يفتك بنا.

- من تقصدين؟

- زوجي عماد لا أعرف كيف عاشرت هذا الرجل تلك السنين الماضية لم أكُن أعلم أنه يدخر كل هذا الشر.

- إنه من سرقك مني ألم يكن من سرق حبِك وحنانِك؟ من اغتصب عُمركِ؟ وتركتني وحدي؟ يتيمًا كل اليتم من دون حُبك؟

ـ ماذا كان عليّ فعله أمام جبروت أمي وتهديدها لي بقتلك؟!

عيناه مثبتة نحو عينيها تتفحصها تترقرق دمعة من عينه تسقط ليزيحها بظهر كفه، ثمّ يخرج منديلًا من جيب سرواله ويقترب من قدمها ليربط فوق مكان العضة، يتأمل ملامحها ويمتعض كلماته في حدة:

ـ ستكونين بخير.

ثمّ يهب واقفًا يتذكر شيئًا ما ليخرج حبلًا كان في حقيبته ويقترب منها يوثق يديها ورجليها تحاول التملص منه ولكن لم تستطع مقاومته، استمع لوقع الأقدام فتوارى جانبًا إلى أن يراقب من الآتي فما هو إلا عماد وأحلام مصطحبان الجثتين معهم يخبرها:

ـ الآن اقرئي تعويذتك لتخرجي الكنز هيا هيا يا لقيطة.

إخلاص:

ـ لا تناديها هكذا إنها ابنتي.

عماد يضحك ساخرًا:

ـ أعلم ذلك ابنتك بالتبني يا عزيزتي لقد أخبرتها إنه أقل واجب نحونا أن ترد لنا هذا الإرث وبالأخص لي فأنا من حملت اسمه واسم عائلته تلك الفتاة خريجة الملاجئ.

إخلاص تشتعل غضبًا تحاول فك معصميها الموثقين وتتبادل النظر بين عماد الذي لا زال يضحك ساخرًا وأحلام المنكبة مخبأة وجهها بين كفيها تبكي بحرقة:

ـ قلت لك اخرس.. اخرس.. إنها ابنتي من دمي ولحمي ورحمي نعم أخبرك سرًّا لأضيع عليك الإرث وليذهب إلى الجحيم.

ـ نعم أخبريني يا جميلة الجميلات أخبريني أيتها الحمقاء ولكن فلتخبريني أولًا من وثقك هكذا هل الجنّ ما فعل ذلك؟ حقًّا فله عظيم الشكر مني هااهاها.

لا زال يضحك ساخرًا لم تخبره إخلاص شيئًا لا زالت أحلام ترتجف وتبكي في حزن شديد إلى أن زجّ بها عماد مرة أخرى قائلًا لها:

ـ عزيزتي اللقيطة نسيت أخبرك أن الجنّ قد طلب ثلاث جثث وليس اثنتين إذًا عليكِ الاختيار بين عمك فوزي الذي حتمًا أن روحه قد صعدت إلى بارئها أو تلك المرأة التي تدّعي بنوتك إنه لمشهد مؤثر إهئ إهئ هاهاهاهاها.

يحاول تمثيل أنه يبكي ساخرًا من بكاء أحلام ثمّ يطلق الضحكات الاستفزازية التي ترج الجدران بينما إخلاص تحمل ملامحها الفزع والرهبة إنه يحدق بها ويحول النظر بينها وبين أحلام، ثمّ يضيق النظر وفجأة تخرج رصاصة من مسدسه لتصيب إخلاص فتصرخ صرخة مكتومة من الألم ولا زالت موثقة بالحبال، هرولت أحلام نحوها وهي تصرخ صرخات مدوية عالية في فزع وهمت أن تحل رباط الأخيرة وإخلاص قد أصيبت في كتفها الأيسر وتنزف نزفًا، أحلام تصرخ وتبكي وتضمها إلى صدرها:

ـ لا لا لاااا أمي رجاءً لا تتركيني أُقبل يُمناكِ لا تتركيني.

ظهر من مخبئه حامد تقاسيم وجهه تحمل الشحوب بلون الموت عيناه لا تصدق ما يراه لسان حاله هل عاد ليرى إخلاص وهي تحتضر أمامه؟! أسرع برأسه نحو أمعاء عماد في حركة أشبه بصراع الثيران يكبل له اللكمات في وجهه لتصيب إحدى عينيه بالكدمات، ثمّ هوى على فكه يصفعه بالضربات التي فاضت بالدماء يتراجع الأخير إلى الوراء مذهولًا من ذلك الرجل الذي فاجأه حامد يقف جانبًا يتصل بالإسعاف ويحاول مجددًا أن يتصل برجاله الذي أجاب رئيسهم عليه:

ـ سيدي توًّا سنكون أمامك إننا قد عبرنا من الممر الضيق.

وما إن انتهى إلا أنّ عماد باغته بتسديد ضربة من ساعده على ظهر حامد الذي كان موليًا له ظهره، ووجهه نحو إخلاص التي لا زالت تنزف الدماء وبجوارها أحلام قد نزعت المنديل من فوق قدم إخلاص لتسد به بركة الدماء المتدفقة من كتفها.

لا زال حامد يلحق ذلك الأشبه بالخنزير ببعض "الشلاليط" واللكمات ليسقط الأخير على ظهره فيطير من يده المسدس الذي كان يحمله في حين وقف حامد يلهث من العراك كان عماد يزحف جانبًا ليستعيد مسدسه ولكن حين لامست يده المسدس الساقط على الأرض كانت قد ظهرت أرجل أحدهم لتدهس تلك القدم يد عماد الممسكة بالسلاح:

ـ إنها غلطتي يا رجل أنا من أقدمت بك إلى تلك العائلة لم يأتِ يومًا على بالي أنك تخونني لقد كنت لك بمثابة الأخ والصديق لم أعرف أنك كأسد جائع حين يبتلع فإنه يبتلع أقرب الناس إليه وحين يفترس فإنه يفترس اليد التي أحسنت إليه وأطعمته، ولولا أنني واثق كل الثقة من زوجتي كدت لا أصدقها حين قالت لي عن محاولتك التحرش بها ونحن غياب وحين صدتك تبدلت معاملتك معها وأصبحت تنهرها في أي حديث، أتتذكُر حين جاءت خلفي سناء أعلى الدرج قبل مجيئنا إلى هنا؟

يستطرد حديثه:

ـ نعم كانت تحذرني منك كنت أعلم أنك يومًا ما ستغدر بي؛ لأن الغدر عنوانك.

يحدق به بنظرات استنكارية:

ـ أنت يا فوزي؟ لا أصدق ألم تمُت؟

ـ نعم أنا فوزي، فوزي الذي رآك تُخبئ شيئًا في طيات ملابسك قبل أن ندلف إلى المعبد، فقط بسذاجتي لم أشك أنك تسير مسرعًا قبل الجميع لتثبيته في الممر الضيق كنت تريد الإسراع في التخلص منا حينما ثبت هذا السيخ الحديدي المُخبأ بين طيات ملابسك ولم يلحظه أحد.

نهض عماد بملامحه الغاضبة، يحدق بفوزي ويحول النظر بينه وبين إخلاص وقد انكشفت أوراقه محاولًا أن يمحو الدماء التي تتصبب فكه إزاء لكمات حامد له، ومن دون أن يلاحظ أحد اقترابه استعاد مسدسه

سريعًا ليشهر فوهته في وجه جميعهم آمرًا أحلام أن تُكمل قراءة التعاويذ وإلا أفرغ مسدسه في رأسها، في حين اقترب ليجذبها من شعرها وهو لا زال شاهرًا مسدسه في وجه الجميع قامت وهي ترتعد كان صوت إخلاص يحتضر ولا زالت تنزف صرخت بصوت الضعف:

ـ حامد حاااامد لا تجعله يمسّها إنها... إنها ابنتك.

****

الفصل العشرون

حنين الماضي

حين تنسدل ستائر النخوة والرحمة والإنسانية؛ تسقط جميع الأقنعة عن صانعيها، تنكشف أنياب الوحوش الداخلية الخالدة بين الدماء الباردة التي اعتادت على أذية غيرها دون أن ينتاب ضميرها أذى.

تجمدت الوجوه والصمت يغلف الجميع، في حين دبت الحياة في صوت إخلاص المتحشرج بصوت الاحتضار محذرة عماد أن يصيب ابنتها فلذة كبدها بسوء، يشخص لها بعيني الحقد والامبالاة بضحكة بلهاء، ينتصب حامد بعينين محملقتين في وجه إخلاص ويحول بينها وبين أحلام يتلعثم يردد في نفسه داخليًّا متعجبًا غير مصدق ما تقوله:

ـ إخلاص ماذا تقولين؟ ابنتي؟ من؟ هل تلك الفتاة ابنتي؟

يشير بيده تجاه أحلام ويخاطب إخلاص وتسقط من عينه دمعة حائرة:

كيف لم تخبريني؟ هل لم أكن بجوارك يومًا ما؟ ألم تحبيني لدرجة أن تخبئي عني مثل هذا الحدث؟

يتكئ فوزي بكتفه المنجرح يميل بجذعه على الحائط من خلفه، تبكي إخلاص وتستعيد الأحداث في ذاكرتها لتذرف بحرقة دمعاتها، صمتت قليلًا يؤلمها جرحها النازف وحامد يصم أذنها بصرخه فيها:

ـ انطقي يا امرأة، لماذا لم تخبريني؟ أليس من حقي؟ كيف جاءت لكِ الجرأة حتى خداعي؟ كيف لكِ تربية ابنتي في كنف رجل غريب؟ أجيبيني؟ كيف لكِ أن تنسبيها له؟ ابنتي أنا ياا إخلاااااص؟

أمسكها من كتفيها والكتف الأيسر مصاب تألمت من حدة أصابعه في جسدها تأوهت وهي تتوجع:

ـ قلت لك أمي هي السبب كنت بلا حيلة أمام جبروتها أخبرتني أنها ستقتلك أخبرتني أنك ابن أختها التي سلبتها إرثها من الجان، هددتني أن تشوه جسدي بنيران جنودها الملاعين ماذا كنت أملك أنا؟ ماذا كنت أفعل أمام حبي لك؟ حينما أجبرتك على طلاقي حينها لم أكن أعرف بخبر حملي، وحين أخبرتها بالحمل كان ردها لي...

تشرد بعينيها بعيدًا فتستعيد ذكرى ما مضى في مخيلتها حين كانت تقف تحاور أمها وأخبرتها بالحمل فما من أمها إلا أنها جذبتها من معصمها كادت تحطمه:

ـ إياكِ أن تخبري حامد أو تخبري أحدًا أسمعتِ؟ وإلا صوبت لعنتي عليكِ وعلى مولودك وعلى حامد وأحرقتكم جميعًا.

تألمت إخلاص وملصت يدها من أمها تومئ بالموافقة والرضوخ لما تقول:

ـ سأفعل ما تريدين ولكن كيف سيولد مولودي بلا أب؟ وكيف ستكون حياتي بلا زوج وأنا لدي طفل؟

تجحظ بعينيها تتفرس وجه ابنتها البريء:

ـ لن تخبري أحدًا ولا شقيقتك، وأما عن المولود فسيكون وريثي وهمزة الوصل بيني وبين أعوان إبليس.

حينما أصغت إخلاص لما تقوله أمها اعترتها شهقة انطلقت من صدرها كقذيفة، وضعت كفها على ثغرها محاولة أن تكتم رعدتها مما تصغي إليه:

ـ لا لا لا يا أمي أرجوكِ لا تؤذي طفلي فإنه ليس له ذنب فيما تفكرين أرجوكِ أن ترفقي به وبي فكل ذنبي الوحيد أنني ابنتك وأنني أحببت ابن خالتي الذي ليس له سوانا.

عقدت حاجبيها في غيظ مبرم واندفعت تصفعها على وجهها مأنبة إياها:

ـ اخرسي أيتها الحمقاء لن أسمح لكِ أن تفسدي ما عقدته وعزمت عليه أنا وأعواني سيكون مولودك همزة الوصل وموضع الإرث لن أخبر أحد إلا إياه فقط.

أطلقت ضحكاتها كرماد يصيح من فوهة بركان شاخصة نحو الفراغ، استطردت إخلاص حديثها وهي تذرف الدمعات والعرق يسيل من جبهتها كزخات مطر:

ـ حينها وعدتني أمي بحياة أفضل بشرط أن أضمن لها أن أبتعد عنك تمامًا، خبأت خبر حبلي وأرسلتني إلى إحدى أقاربها لحين أن أضع مولودي وحضرت الولادة فلم أرَ المولود كدت أُجن حينما أخبرتني أنها ستضعه في إحدى دور الأيتام، وكلمت فوزي أن يبحث لي عن عريس له مستقبل مضمون من وجهة نظرها، وقد كانت تشخص نحو عماد الذي لا زال فمه ينزف إثر لكمات حامد، إلى أن تبع نظراتها حامد وأشار لها أن تكمل:

ظلت أمي تلاحقني بتهديدها ووعيدها أن أبتلع دواء يحجب الإنجاب من عماد مدة ثم ألح عليه في استدعاء طفل من دور الأيتام بحجة أنني أشتاق للأطفال وأني أعاني الوحدة، وبعد فترة كانت طفلتي التي كنت أذهب يوميًّا لأراها دون علم أحد، إلى أن جاء اليوم الذي اتفقنا أنا وإياه أن نذهبا سويًّا لإحدى دور الأيتام وتصنعت أنني بالصدفة وقعت عيني على تلك الفتاة التي لم تتعدَّ عامها الأول، كانت تلهو وتضحك للملائكة مسجاة على فراشها، عيناها تناديني أقنعت عماد أنها جميلة وجذبتني إليها، ومع رفضه وتمسكي أنا بشدة وافق.

يندفع حامد نحوها ويجثو على قدميه واضعًا كفيه على صدغيها طالبًا علة وسبب لما فعلته، يستجوبها لتهدأ نار قلبه:

ـ لِمَ فعلتِ بي وبابنتي وبكِ كل هذا؟ هل من أجل الإرث؟ بماذا وعدتِك أمك؟ هل يكفيكِ الذهب؟ هل سيعيد إلينا حبنا؟ وزهرات عمرنا المفقودة؟ أجيبيني.

يرفع بكفه رأسها ليحدق في عينيها وعيناه تمتعض الغضب والشرر يتطاير منها، وأما عنها فُتخبئ عيناها استحياءً من ضعف موقفها تذرف دمعاتها في وهن، إلى أن جذبها بقوة لترى عينيه وتنتبه يبدو عليه الألم صوته يتهدج:

ـ ألم تسألي نفسك أين ذهبت؟ إلى أين مضيت في الدنيا؟ هل كانت أموري مستقرة أم أنني مشرد ألتحف الأرصفة، هل أملك من الِغطاء ما يقيني برد

الوحدة؟ ألم آتِ على بالك ولو ساعة واحدة؟ طبعًا أمورك مستقرة فلماذا تنعي هم المسكين الذي ضحكت عليه أنتِ وأمك وطردتموه شر طردة.

صرخت فيه إخلاص:

ـ حاااامد أرجوك كفى

تزيح دمعاتها في حين ابتعد عنها حامد موليها ظهره متجهًا نحو أحلام في خطىً بطيئة يتأملها وكذلك هي بعينيها الدامعة وشعرها البني المسترسل، وانطلق الاثنان يعانقان بعضهما بعضًا ويبكيان مأساة الفراق، تختبئ أحلام بوجهها في ثياب حامد:

ـ كنت أعلم أنه لم يكن أبي كان قلبي دومًا يحثني على ذلك وكنت أنكر غير مصدقة ما يفعله معي، لماذا جئتم بي في تلك الحياة التعسة وتركتموني يا أبي؟

بصوتٍ حانٍ كاد يفقد نطقه:

ـ قلت ماذا؟ يا يا أبي؟ أعيديها يا صغيرتي أعيديها أتوسل إليكِ.

فانطلقت تبكي بحرقة ويجذبها حامد لصدره يربت على رأسها:

ـ اهدئي سامحيني يا صغيرتي، لم تكن غلطتي صدقيني إنه القدر اللعين ولكن لن أسمح لأحد منذ الآن أن يفرقنا عن بعضنا.

يزيحها من حضنه ليتأملها ويزيل بكفه دمعاتها، يقبل جبهتها بحنو ثمّ أعادها إلى صدره بشغف الأب الذي أدرك للتو أبوته وهو من ذاق معنى اليُتم طيلة عمره.

الفصل الحادي والعشرون
أحلام في المقابر

الصمت يلفح المكان في حين تجيش مشاعر الأبوة والبنوة وتلاحقهما الأعين، فجأة زحف عماد دون أن يلاحظه أحد إلى أن وصلت يمينه إلى سلاحه الناري ليسرع وينتزعه بين الحضور مهددًا إياهم آمرًا أن تطلق أحلام التعاويذ لتفك طلاسم الكنز ويبدو ظاهرًا نصب أعينهم، ولكن أحلام أبت أن تفعل ما طلبه منها صارخة في وجهه أنها تبغضه وأن يبتعد عنها، وفي تلك الآونة اندفعت قوة لا حصر لها من ردهة المعبد تحمل بين طياتها الأسلحة النارية صارخين في الجميع آمرينهم بعدم التحرك، إنها قوات الأمن ولكن في حين اقتربت أيدي أحد المسلحين من عماد ليحثوه على الاستلام انطلقت من سلاحه رصاصة طائشة ولكنه تعمد أن يطلقها لتطير في الهواء والكل يلاحقها لتؤول إلى صدر أحدهم، لا ليس أحدهم بل إنها..

إخلاص:

ـ لاااااااااا ابنتي لاااا حامد أغيثني قتلها المجرم قتلها.

حلت إخلاص يديها المقيدتين بمساعدة أحدهم لتلتحم بدماء ابنتها التي لطخت ملابسها إذ أن الرصاصة انطلقت لتسكن بين صدر الأخيرة، همّ رجال الشرطة بالقبض على عماد في حين تم طلب الإسعاف لإنقاذ أحلام التي صارت تحتضر بين دموع أمها وأبيها ينهمران بكاءً، إخلاص تلطم خديها وتولول بينما يجلس حامد عند قدمي ابنته يقبلها ويصرخ حرقة موتها:

ـ لمااااااذا تتركيني الآن؟ لماذا بعدما عثرت عليكِ أخيرًا؟ لماذا عدتِ إليّ وأنتِ تنوين البعاد والفراق؟

بينما صوت إخلاص المتحشرج بالدمعات، صرخات لا تنقطع تشق الصدور ألمًا، في حين نطقت شقيقة إخلاص باكية بصوت منخفض:

لعب الفتاة ذهبت هباءً وكذلك الكنز يا إخلاص لقد حُلت لعنة الجان ولم يعدُ هناك بيننا وبينهم وسيط لقد ذهب كل شيء يا إخلاص.

تنتحب شقيقتها في حين جاءت عربة الإسعاف قد وصلت لتأخذ على متنها فوزي المصاب في كتفه بجرح غائر، مضى الجميع ثم قُبض على عماد بتهمة القتل وحمل سلاح غير مرخص، في حين ذهب فوزي إلى المشفى، وأما إخلاص وحامد كانا هناك في مكان تعج رائحته بالموت، إنها المقابر يقفون أمام قبر أحلام، راحت إخلاص وجثت على ركبتيها لتقبل قبر ابنتها في حزن يعتصر قلبها ولكن من شدة البكاء والنحيب غاصت عينها في النوم رغماً عنها لتستعيد ما مرت به وتستعيد ذكرياتها مع أحلام، وفجأة تطل في رأسها ذكرياتها وهي طفلة بينما تلعب مع شقيقتها تحوطهما الأشجار والزهرات في بيت جدهما أبي والدتها سعاد هانم، وهناك كانت تختبئ من حامد ويلعبان سويًّا ببراءة الأطفال، ترى نفسها وهو يلاحقها بالدنو منها وهي تطلق ضحكاتها عالية:

لن تمسك بي أيها الحامد هاهاهاها.

وفجأة أمسك بها وضمها إلى صدره، يتنفس خصلات شعرها المعطر بالياسمين يتسلل إلى رئتيه ليقبل رأسها المثقلة فتشعر به، تبدأ تستفيق من غفلتها لتجد نفسها أمام أحد المقابر، إنه قبر لسيدة تحمل اسم السيدة/سميحة نديم إنها خالتها شقيقة والدتها السيدة سعاد نديم ووالدة حامد، إخلاص تنظر إلى نفسها إنها لا زالت في سن العشرين بشعرها المعقوف خلف ظهرها يسترسل تتشح بالسواد وجسدها الممشوق يحاوطه كفا حامد، كيف ذلك؟ هبت واقفة تتساءل:

ـ حامد؟ هل أنت هنا؟ ماذا جاء بنا إلى هنا؟ ألم نكن نزور قبر ابنتنا أحلام؟

يحدق بها حامد باندهاش:

ـ أحلام؟ ابنتنا؟ هل نحن تزوجنا؟ حتى نتزوج؟ وأسمينا ابنتنا أيضًا؟

حبيبتي يبدو أن أعصابك متوترة من أثر وفاة أمي، هلمِّي لقد تأخرنا هيا بنا نعود للمنزل ستعاقبنا خالتي سعاد على كل هذا التأخير.

تبتلع ريقها بصعوبة:

ـ هل أمي على قيد الحياة؟ لم تمت؟

شهق حامد وهو يضحك:

ـ هل أمتِها؟ أيتها الابنة الملعونة أنا لو كنت بمكانها لن أسامحك هاهاها، وهل أمتِني أنا أيضًا؟ في أحلامك؟

شهقت إخلاص بدهشة كادت تقتلع قلبها:

ـ ماذا حامد؟ أقلت أنني...؟ كنت أحلم؟ هل هذا صدق؟ هل كل هذا حُلم!

ـ بلى إنه كابوس، كابوس مؤلم.

وهنا تذكرت مشهد موت الفتاة التي رأتها ابنتها في الحلم، وبدأت تذرف الدمعات وتنهار وتنتفض وتخبئ وجهها بين راحتيها، ليقترب منها حامد مربتاً على رأسها ضامًّا إياها إلى صدره:

ـ حبيبتي اهدئي، حمدًا لله أنه حلم، وذهب لحال سبيله.

قاطعته:

ـ بلى يا حامد لم يكن حُلماً إنه كابوس لقد تفرقنا وأنا تزوجت غيرك، أتدري؟ إنه لرجل بشع، صعب المراس، مجرم، قاتل.

لا زالت تنتفض وهو يقترب منها، قبّل جبينها:

ـ حبيبتي لن أدع أحدًا يأخذك مني، مهما كان الثمن، لن أدعك لغيري أتفهمين!.

في هذه الأثناء كانت أمها تحضر زارًا في بيتها وتتلفح بالجان ومساعديها، في غضون وقت قليل كانت وصلت إخلاص مصطحبة معها ابن خالتها

وحبيبها لتندفع راكلة بقدميها كل ما تحمله المنضدة الموضوعة نصب الأم صارخة في وجهها:

ـ ألم تكفي؟ ألم تكفي عن هذا الشرك بالله؟ سأضعك في مشفى الأمراض العقلية، وإما أن أبلغ عنكِ الشرطة، لقد رأيت تآمرك ضد أختك وضد ابن خالتي حامد ولهثك خلف المال والجن لتلحق بنا اللعنات من تحت رأسك، كفى قلت لكِ كفى.

وقفت سعاد أمها في حالة من الذهول وبعد أن أخبرها حامد بتفاصيل الحلم الذي رأته ابنتها من قِبل أمها وابتعادها عن الله بالإنصات إلى الجان لهثًا خلف المال وما قد أصاب ابنتها ولحق بها نتاج ذلك، لترقد الأم باكية تذرف دمعاتها تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، تبكي جراء فعلتها وشركها وإنصاتها للدجالين والأعمال السفلية التي حتمًا ستؤدي بها الجحيم:

ـ آه يا ربي أرجو منك المغفرة، لقد تاهت قدماي في العصيان سنين طويلة وأشركت، أرجوك يا الله اغفر لي واعفُ عني لقد دبرت الشر وسرت فيه وخالفت شريعتك ودينك ورسولك، اللّهُمَّ ردني إليك ردًّا جميلًا.

وانخرطت الأم تبكي وتسجد لله ليقبل توبتها، وزعمت أن تحرق جميع الكتب الشيطانية ليعلو صوت الحق صوت الله صوت الإيمان في بيتها وقلبها بعد تلك الفترة العصيبة التي تاهت فيها، وفي تلك الأثناء وبعدما أخذت كل الكتب والشعوذات التي كانت تستخدمها وألقت بها بين ألسنة

النار، جاءها حامد يطلب منها يد ابنتها وقرة عينها إخلاص وحين رأت الفرحة في عينيّ العاشقين وافقت، وراح كلاهما ليحيا أجمل عمرهما سويًّا، تذكرت إخلاص تلك الأحلام التي رأتها يومًا ما بين المقابر، لتخبر حامد أنها مُصرّة أن تسمي ابنتهما أحلام على أن ينعم الله عليهما بأحلام هانئة تملأ حياتهما سعادة.

****

محتويات الكتاب

إهداء.....4

الفصل الأول زيارة مفاجئة.....5

الفصل الثاني العزاء.....10

الفصل الثالث حقيقة أم خيال.....14

الفصل الرابع على موعد.....19

الفصل الخامس الوصية.....23

الفصل السادس الخيط.....28

الفصل السابع الوصية.....34

الفصل الثامن الوريثة.....40

الفصل التاسع خطوة للورا ء.....47

الفصل العاشر السيادة.....53

الفصل الحادي عشر السرّ.....59

الفصل الثاني عشر البر الغربي.....65

الفصل الثالث عشر التعويذة.....70

الفصل الرابع عشر حلم أم كابوس.....76

الفصل الخامس عشر أمرٌ مُحير.....84

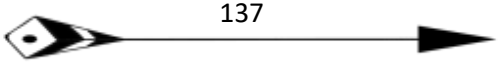

الفصل السادس عشر إشارة البد ء 91
الفصل السابع عشر وضع استعداد..... 97
الفصل الثامن عشر مخاطرة..... 106
الفصل التاسع عشر الصاعقة..... 113
الفصل العشرون حنين الماضي..... 124
الفصل الحادي والعشرون أحلام في المقابر..... 130
محتويات الكتاب 137

تمت بحمد اللّه

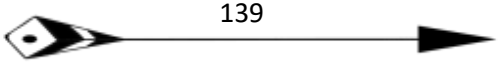

رواية

أحلام في المقابر

مـهـا صبــري

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1443 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com